الجواهر

مِنْ أَخْبَارِ النِّسَاءِ فِي القُرْآن

الجواهر

مختارات

مِنْ أَخْبَارِ النِّسَاءِ فِي القُرْآن

فَايِز بْن سَعِيد الزَّهْرَانِي

حقوق الطبع محفوظة

ح **شركة آفاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤٤هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، فايز سعيد صالح

الجواهر. / فايز سعيد صالح الزهراني - ط١ - الرياض، ١٤٤٤هـ

ص ٢١٨؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٠-١-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

١- المرأة في الإسلام

٢ - القرآن - مباحث عامة

أ. العنوان

ديوي ٢١٩,١ ١٤٤٤/١٠١

رقم الإيداع: ١٤٤٤/١٠١

ردمك: ٠-١-٩١٨٨٨-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الرابعة

١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
مدخل	٩
كيف نستقبل هدايات القرآن؟	١٩
أول امرأة	٣١
الأم الربانية	٤٥
درة العابدات	٦٥
مربية أبطال	٨٥
آسية... الثبات وقوة الوفاء	١٠٣
أدب الساقيتين	١١٩
الصهر الصالح	١٣٧
بيوت القصب	١٥٥
أسرار البيوت	١٧٩
امتحان البيوت	١٩١
المراجع	٢١١

مدخل

الحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أكبر خسارة يمكن أنْ تمنىٰ بها البشرية هي فقد الدليل! الدليل الذي يهديها في ظلمات الحياة وعتمة الأزمات والمشكلات، فتصيبها الحيرة وينهشها السؤال: أين الطريق؟ وينقضي الزمان وهي بعدُ تصارع تلك الظلمات والعتمات.

وأصدق دليل هو الوحي المعصوم المنزَّل من عند الله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾[النساء:٨٧]. وقال تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورىٰ:٥٢]. فهذا الوحي روح يبعث الحياة في الناس وعقولهم وحضاراتهم، ونور يضيء كلَّ ظلمة وعتمة.

وإذا أردت أنْ تعرف فضل الله تعالىٰ علىٰ الأمة بنزول القرآن الكريم علىٰ الرسول الكريم ﷺ فتأمَّل حال الأمم اليوم التي أبت أنْ تهتديَ بالقرآن في بناء حضارتها، وأبت أنْ تهتديَ به في حل مشكلاتها، انظر إلىٰ أي حال من الدمار وسفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل وصلوا، وإلىٰ أي مدىٰ من الشقاء وفقْد الطمأنينة وتمزق النفس بلغوا، وتستطيع أنْ تسبرَ الواقع وتحصيَ أعداد القتلىٰ في الحروب والذين أصابهم الفقر بسبب الرأسمالية العالمية، والذين يعيشون بلا أبٍ يحملون اسمه، والذين ليس لهم مأوىٰ يبيتون فيه، وتأمل نسبة ازدياد الجهل والأمية، ومشكلة تصاعد الديون علىٰ المستوىٰ العام والمستوىٰ الفردي، والازدياد المتسارع لعدد العيادات النفسية، وتفشي الانتحار.

لا شك أنه الشقاء المتحتم الذي أخبرنا الله عن وقوعه حين نفقد الدليل، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾[طه:١٢٣-١٢٦]. وفي قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ يقول ابن كثير: (أي لما أعرضت عن آيات الله،

وعاملْتَها معاملة من لم يذكرها، بعد بلاغها إليك تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها)[1].

* * *

وإنَّ من المسائل الكبرىٰ التي ضلت فيها الحضارة الغربية وأضلت بها تعريف المرأة: من هي؟ وما حق الله عليها؟ وما وظيفتها في الحياة؟ وما هي مسؤولياتها؟ وما الفرق بينها وبين الرجل؟ وما علاقتها به؟ وما موقعها في الحياة الزوجية؟

ونتيجةُ هذا الضلال كانت خطرة، إذ أتت علىٰ أصولٍ مهمة في الشرائع فألغتها وأتت علىٰ محكمات الدين فكسرتها، فالعِرض والنسل والنسب مما جاءت الشرائع بالحفاظ عليها وتنميتها، وجاءت الحضارة الغربية بتمزيقها وتخريبها، فلا الأعراض محفوظة ولا الأنساب مصونة ولا النسل مزدهر.

ولقد جاء القرآن الكريم بأحسن تعريف للمرأة، وأجمله وأكمله، وكرَّمها وأعلىٰ منزلتها، ومن ذلك - علىٰ سبيل المثال - أنَّ القرآن انتشلها من المهانة التي كانت الجاهلية تُنْزل المرأة فيها إلىٰ الكرامة، فبعد أنْ كانت سلعة يرثها الأبناء من آبائهم المتوفين، نجد القرآن

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٣١٦.

يرفض هذا المسلك، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾[النساء:١٩]. قال البغوي: (نزلت في أهل المدينة كانوا في الجاهلية وفي أول الإسلام، إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قريبه من عصبته فألقىٰ ثوبه علىٰ تلك المرأة وعلىٰ خبائها، فصار أحق بها من نفسها ومن غيره، فإنْ شاء تزوجها بغير صداق إلا الصداق الأول الذي أصدقها الميت، وإنْ شاء زوَّجها غيره وأخذ صداقها، وإنْ شاء عضلها ومنعها من الأزواج يضارها لتفتدي منه بما ورثته من الميت، أو تموت هي فيرثها، فإنْ ذهبت المرأة إلىٰ أهلها قبل أنْ يلقيَ عليها ولي زوجها ثوبه فهي أحق بنفسها.

فكانوا علىٰ هذا حتىٰ توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن - وقال مقاتل بن حيان: اسمه قيس بن أبي قيس - فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها، ثم تركها ولم ينفق عليها يضارها لتفتدي منه، فأتت كبيشة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إنَّ أبا قيس توفي، وورث نكاحي ابنه، فلا هو ينفق عليَّ ولا يدخل بي ولا يخلي سبيلي، فقال ﷺ: «اقعدي في بيتك حتىٰ يأتي فيك أمر الله»، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية)[1]. فمنع المولىٰ سبحانه هذه الشريعة الجاهلية إكرامًا للمرأة ورفعًا لشأنها.

---

(١) معالم التنزيل: ١/ ٤٩٧.

بل جعل القرآن للمرأة نصيبًا من تركة الميت، كما أنَّ للرجل نصيبًا، وتولىٰ القرآن القسمة بينهما، قال تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ [النساء:٧]. فتأخذ المرأة أحيانًا أكثرَ من الرجل، وتأخذ أحيانًا أقلَّ من الرجل، وتأخذ أحيانًا مثله، فانظر أين كانت المرأة قبل القرآن وأين صارت بعده، في مثال واحد فقط، والأمثلة كثيرة وليس هذا مجال البسط فيها.

* * *

والقرآن الكريم عرَّف المرأة وأجاب عن سؤالاتها القديمة والمعاصرة، واتخذ لذلك عدة أساليب مباركة، فتجده يجعل المرأة مساوية للرجل في أصل التكليف الشرعي، وتكون مخاطَبة بالدين عمومًا كالرجل، وعليها أنْ تقرأ القرآن كاملاً وتتدبر آياته وتفهم معناها كالرجل، وعليها أنْ تتبع سنة النبي ﷺ كالرجل، قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[آل عمران:١٩٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء:١٢٤]. وقال تعالىٰ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[النحل:٩٧].

وتجده يخاطب المرأة بوجه خاص، ليرشدها إرشاداً خاصاً بها تختلف فيه عن الرجل، فيقول تعالىٰ: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١]. ويقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[الأحزاب:٥٩].

وتجده يخص المرأة بحكم في خطاب عام مشترك بينها وبين الرجل، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ۚ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[النساء:٣٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[النساء:٤].

وتجده يقص علىٰ المرأة قصص النساء اللاتي اختارهن الله أنْ يكنَّ قدوات صالحات للمؤمنات، من الأمم الماضية ومن هذه الأمة، وتجد كل قصة تحمل عدداً من الدروس والمفاهيم التي يجب فهمهما والعمل بها، وربك يخلق ما يشاء ويختار، وبمجموع تلكم القصص تستطيع المؤمنة أنْ ترتقي بمفهومها عن المرأة لأنها قصص ربانية، والله تعالىٰ لا يُنْزل إلا أحسن القصص رواية وعبرة وفائدة، قال تعالىٰ: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[يوسف:٣].

* * *

وفي هذا الكتاب سنعرض - بإذن الله - إجابات القرآن عن سؤالات المرأة، من خلال قراءة قصص النساء في القرآن واستلهام الدروس والمفاهيم المضمنة فيها، من باب التدبر الذي أُمرنا به في قوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[ص:٢٩].

وهاته النساء اللاتي سنعرض بعض قصصهن القرآني مختلفات النماذج، فمن النماذج مؤمنات من نساء الأنبياء مثل حواء وسارة وهاجر وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين، ومنها مؤمنات زوجات كافرين مثل آسية بنت مزاحم امرأة فرعون رضي الله عنها، ومنها مؤمنات غير متزوجات مثل مريم بنت عمران الصدِّيقة

رضي الله عنها، ومنها مؤمنات زوجات صالحين مثل امرأة عمران رضي الله عنهما، ومنها صالحات بنات لشيخ صالح مثل امرأتي مدين رضي الله عنهما، ومنها صالحات ذكر القرآن سيرتهن قبل الزواج مثل امرأة مدين رضي الله عنهما، ولقد تزوجها موسىٰ قبل أنْ يبعثه الله نبياً بعشر سنوات، لكن قصتها التي ذكرها الله تعالىٰ وقصة موسىٰ معها ومع والدها كانت قبل نبوَّته بعشر سنوات؛ وهذا يغفل عنه كثيرٌ حين يتلون الآيات.

كما أنَّ الكتاب تعرض لقصة نساء كافرات في عصمة أنبياء مثل امرأة نوح وامرأة لوط، وهذا التنوع في النماذج مقصود في القرآن، ليشمل الوقائع الحياتية والأنماط البيتية.

وأود أنْ ألفت عناية القارئة الكريمة - تحديداً - إلىٰ أمرين مهمين:

أولهما: ربما خطر في ذهنها وهي تطوي صفحات الكتاب قراءة أنَّ الكلام مركَّز علىٰ ما يجب عليها، فلربما شعرت أنَّ ثمة إغفال لواجبات الرجال وأنَّ ما هو مطلوب منصبٌّ عليها وحدها...

فأقول: إنَّ هذا الكتاب لا يتجه إلىٰ استقصاء واجبات الرجل، لأنَّ المنطلق هنا هو القصص النسائي، والقصص النسائي ليس مظنة لاستيفاء واجبات الرجل، ثم إنَّ هذا الكتاب يخاطب - بالدرجة

الأولىٰ – النساء المؤمنات فكان تسليط الضوء علىٰ الهدايات المتعلقة بهن، علىٰ الرغم من وجود إشارات مهمة تتعلق بشأن الرجال لم أستطع تجاوزها، ثم إنَّ هذا الكتاب لا يستقصي كل واجبات المرأة وإنما يعرض الهدايات المستنبطة من قصص النساء في القرآن.

ثانيهما: تعرضت القصص القرآنية التي تناولها الكتاب لعدد من القضايا المهمة في حياة المرأة، وليست كلها، فكان دورنا في الكتاب هو الاستهداء بالقرآن علىٰ وجه الحق فيها، لا بحث كل المسائل المتفرعة عن هذه القضايا، فليس غرض الكتاب البحث الفقهي مثلاً أو العقدي، وإنما الرجوع إلىٰ الأصل والمصدر الذي ينير لنا الطريق ويصلح أنْ يكون مرجعًا لكل مشكلاتنا، فربما شعرت القارئة أنَّ الكتاب لم يفِ بتفصيل المسائل، وهو كذلك إذ ليس هذا منهجه، بل منهج الكتاب إعطاؤك الدليل الأصل الذي منه تنطلق عمليات الاجتهاد علىٰ الوقائع والأحداث والمسائل والمشكلات والنوازل. ولا شك عندي أنَّ كثيراً من المسائل الخاصة بأفراد النساء اليوم تحتاج إلىٰ فتوىٰ متقن عارف بالواقع عالم بالمقاصد، وأنَّ علىٰ كل واحدة منهن أنْ تعرض مسألتها علىٰ من هذه صفته من أهل العلم لتعرف وجه الحق فيها فتعمل به؛ إنْ عجزت عن الاستدلال بنفسها في ضوء الآيات وقصص القرآن.

* * *

وختاماً أشكر الله تعالىٰ علىٰ ما منَّ به من إتمام تأليف الكتاب والعيش في جواء القرآن، ثم الشكر لمن تفضل بمراجعة الكتاب من الإخوة والأخوات لما أفادوني به من ملاحظات واستدراكات. اللهم اجعل القرآن روحاً لأرواحنا، ونوراً في طريقنا إليك، أذقنا برد تلاوته وافتح علينا مقاصد قصصه وفهِّمنا معاني آياته، اللهم اهدنا إليه واهدنا به واجعلنا ممن يهدون به وينالون بركة تلاوته وتدبره وهداياته.

رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً.

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً... آمين.

فَايِز بْن سَعِيْد الزَّهْرَانِي

٢٠ ذو الحجة ١٤٤٣هـ

كيف نستقبل هدايات القرآن؟

اعلم - رحمك الله - أنَّ الناس في استقبالهم لأمر القرآن ونهيه، واستجابتهم لتوجيهه وإرشاده، واتباعهم لدليله وهداياته أنواع مختلفة، وقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك فقال: (مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضـًا، فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرىٰ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مَثَل مَن فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسـًا، ولم يقبل هدىٰ الله الذي أُرسلت به)[1].

والقرآن يحدثنا عن حال الناس مع القرآن ومدىٰ استجابتهم له، فيجعلهم أصنافـًا مختلفة، لتنظر إلىٰ موطئ قدمك أين هي؟ ومع أي صنف؟

فنجده يحدثنا عن أصحاب النبي ﷺ حين استجابوا وأطاعوا بلا قيد أو شرط أو تردد؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما نزلت علىٰ رسول الله ﷺ ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن

(١) أخرجه البخاري حـ ٨٠، ومسلم حـ ٢٢٨٢.

﴿يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٨٤]، قال: فاشتدَّ ذلك علىٰ أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا علىٰ الرُّكب، فقالوا: أيْ رسول الله! كُلِّفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله ﷺ: «أتريدون أنْ تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير»، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلما اقترأَها القوم ذلَّتْ بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالىٰ، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَا﴾ «قال: نعم» ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ «قال: نعم» ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٨٦] «قال: نعم»)[1].

فهذه حقيقة الإسلام؛ أنْ تُسلِم قلبك لله ولرسوله، أيْ تجعله تحت أمر الوحي ونصوص القرآن والسنة وتوجيهها وإرشادها، فلا

(١) أخرجه مسلم، حـ١٩٩.

تفعل شيئًا إلا بدليل ولا تسير في حياتك إلا بنور النصوص، وأنْ توقن أنها هداية مطلقة وصواب مطلق ورشاد مطلق، وأنْ تجعلها حاكمة علىٰ أفكارك وتصوراتك وسلوكك وعلاقاتك وحركاتك، وأنْ تخضع لله ولأمره ولدينه ولكتابه ولرسوله ﷺ. تلك حقيقة الإسلام وروح الإيمان.

وقد امتثل الصحابة الكرام هذا الخضوع والتسليم والقبول، حين التفت بهم رسول الله ﷺ إلىٰ هذا الأمر، فقالوا كما علَّمهم: سمعنا وأطعنا. وهنا ظهرت علامة الإيمان في ذلك المجتمع الصالح، حين مزجوا شعور الوجل والخشية من الله تعالىٰ في مسألة الحساب علىٰ الأفكار والخواطر، وقد لازمهم، مزجوه بتكرار القول: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. كان التكرار سلوكًا ملحوظًا متكرراً في مختلف الأحوال إلىٰ الدرجة التي خلدها القرآن، إذ قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[البقرة:٢٨٥]. ولذلك قال ابن عطية: (وقوله تعالىٰ ﴿وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا﴾ مدحٌ يقتضي الحضَّ علىٰ هذه المقالة، وأنْ يكون المؤمن يمتثلها غابرَ الدهر. والطاعةُ قبولُ الأوامر)[1].

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٢٩٧.

والله عز وجل يبين في موضع آخر من كتابه أنَّ هذا الإذعان والانقياد التام للوحي هو الفرض الذي يلزم المسلم لصحة إيمانه فيقول جل شأنه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[النور:٥١]. فهو سبحانه يقصر حالة المؤمنين - حين دعوتهم إلىٰ حكمه وقوله - علىٰ الإذعان التام والقبول التام، ولاحِظ أداة الحصر (إنما) أيْ لا توجد حالة غير هذه الحال لدىٰ المؤمن.

ولذلك فأنت تجد سيرة أصحاب النبي ﷺ والتابعين وأئمة السلف وعلمائهم وصلحائهم علىٰ هذا الهدي. وهكذا يجب أنْ يكون أهل الإيمان علىٰ مدار العصور والأزمان؛ لا يقدمون رأيًا أو قولاً علىٰ قول الله تعالىٰ، ولو زُخرف لهم وزين.

إذعان الانتهازيين

وتجد القرآن يحدثنا عن صنف من الناس يدعي الإيمان، لكنه لا يستجيب لحكم الله وأمره ونهيه إلا إذا وافق هواه أو رأىٰ في تلك الاستجابة مصلحة مادية واضحة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥۚ بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[النور:٤٧-٥٠].

ثلاث حالات تحدَّثت عنها الآيات في وصف المنافقين الذين يدَّعون الإيمان بألسنتهم، لكنهم في واقع الأمر يرفضون الطاعة والتسليم:

الحالة الأولىٰ: هي التولي عن طاعة الرسول ﷺ إلىٰ طاعة غيره، وتقديم رأي غيره علىٰ رأيه، وقبول حكم غيره دونه، بل يدعون إلىٰ الاستضاءة بهدي غيره دون هديه، وهي حالة مرَضية تشمل مناحي الحياة، وهل يستضيء الناس في هذه المناحي بنور الله تعالىٰ أم أنهم يقدمون ما أنتجته العقول البشرية من أفكار علىٰ ذلك النور؟

وعلىٰ المسلم دومًا أنْ يقف نفسه أمام أيِّ نتاج بشري مهما كان نوعه، سائلاً نفسه: هل هذا النتاج بذاته مما تقبله شريعة الإسلام وهدي النبي ﷺ أم يتعارض معها؟ ليتخذ بعد ذلك قراره السلوكي الصائب. ذلك أنك إذا علمت أنَّ النفاق حالة قلبية وعملية في آنٍ معًا؛ فعليك أنْ تتوقَّ أحوال النفاق في سيرك إلىٰ الله تعالىٰ.

الحالة الثانية: هي الإعراض عن حكم الله ورسوله حين يُدعون إليه، وهذه كما ترىٰ صفة تشمل كل من يدعىٰ إلىٰ حكم الله ورسوله ثم يعرض، فإذا أذعن الإنسان واستجاب إلىٰ حكم الله ورسوله – أيًّا كان موقعه – فقد أبان عن صحة إيمانه وسلامة اعتقاده وحُسن إسلامه، وكل من أبىٰ الاستجابة والإذعان فقد أبان عن فساد إيمانه ومرض قلبه.

وهي حالة لا تقتصر علىٰ الخصومات المالية أو القضايا الجنائية، بل تشمل معها الخصومات الفكرية والحوارات العلمية والنزاعات الاجتماعية والأسرية. ولذلك تجد الموفقين دائمي اللجوء إلىٰ الكتاب والسنة في كل ما يعرض لهم من إشكال؛ في أي باب، يحاولون الاستضاءة بنور الوحي، موقنين أنَّ الله تعالىٰ هدانا لأحسن الأقوال والأفعال والأخلاق كما هدانا لأحسن المعالجات، ولذلك قال الشافعي عبارته المشهورة: (فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليلُ علىٰ سبيل الهدىٰ فيها)[1]. والناس تمتحن في إيمانها في المواقف والأحداث والحوارات، وثَم يتبين النقاء الإيماني.

الحالة الثالثة: هي قبول الحق حين يعلمون أنه يقف إلىٰ صفهم فقط، ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾، فهم لا يقبلون الحق إلا إذا كانوا مستفيدين منه وَفْقَ معاييرهم، فهم في هذه الحالة يبادرونه ويسارعون إليه، قال ابن كثير: (وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنىٰ قوله: مذعنين. وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلىٰ غير الحق، وأحب أنْ يتحاكم إلىٰ غير النبي ﷺ ليروج باطله ثَم. فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أنَّ ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواه؛ ولهذا لما خالف الحق قصْدَه، عدل عنه إلىٰ غيره)[2].

---

(١) الرسالة، ص١٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٧٤.

ومعنىٰ ذلك أنَّ هؤلاء الانتهازيين لم يُقبلوا علىٰ الحق وإنما أقبلوا علىٰ مصالحهم الشخصية، فصادف أنْ تتقاطع هذه المصالح مع الحق في بعض المرات، فإنَّ المعيار الحقيقي لديهم هو المصلحة الشخصية، وهذه صورة من صور عبودية الذات التي وصفها القرآن الكريم بعبادة الهوىٰ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية:٢٣].

والسعدي يعلل ذم القرآن لهؤلاء الانتهازيين، فيقول: (فليسوا ممدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين، لأنَّ العبد حقيقةً مَن يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسرُّه ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوىٰ علىٰ الشرع، فليس بعبدٍ علىٰ الحقيقة)[1].

فتأمل هذه الأحوال الثلاثة التي تتكرر في داخل أوساط مؤمنة ومجتمعات مسلمة، لتدرك أنَّ التجرد من حظوظ النفس ووضع المصالح الدنيوية تحت الأمر الإلهي والإذعان والخضوع لأمر الله ورسوله مما تستلزمه حقيقة العبودية لله، سواء في ذلك الفرد والجماعة، والحاكم والمحكوم، والقوي والضعيف، والذكر والأنثىٰ، في أي أمرٍ كان.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١١٧٤.

عبودية الذات

ضمن مناقشات القرآن لأصول الإشكالات التي كان منها الحديث عن ضلالة المشركين عن توحيد الله وكفرهم برسوله محمد ﷺ، لخص القرآن أصل الإشكال، فقال تعالىٰ: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤].

رفض الحجة الشرعية والبرهان العلمي، واتباع الهوىٰ في كل ما يمليه دون النظر في المصالح الحقيقية العاجلة والآجلة هو روح عبودية الذات وهو جوهر اتخاذ الهوىٰ إلهـًا من دون الله، لأنَّ حقيقة العبودية تكمن في الخضوع والانقياد والاتباع والطاعة، فإذا صرفت هذه الأربع للأهواء والنفس والذات لم يتبقَ لله شيء من العبودية الحقة، فإنَّ العبودية ليست حركات وتمتمات خالية من وظيفة القلب المرتكزة علىٰ الخضوع والانقياد.

وقد يسهل علىٰ الإنسان أنْ يخلع نفسه من عبادة الأصنام، وقد يسهل عليه أنْ يتبرأ من الأوثان، لكن الامتحان كل الامتحان أنْ لا يقدِّم هواه علىٰ الحجة والدليل، وألَّا يجعل ذاته ونفسه محور أفعاله وسلوكه واهتماماته، والامتحان كل الامتحان أنْ تعمد إلىٰ ذلك الوثن

القابع في خبايا صدرك وسويداء قلبك، فتكسره بفأس الخضوع لله وتذبحه بسكين الانقياد لكلام الله ورسوله ﷺ. هذي حقيقة التوحيد. قال ابن القيم: (التوحيد واتباع الهوىٰ متضادان، فإنَّ الهوىٰ صنم، ولكل عبدٍ صنم في قلبه بحسب هواه؛ وإنما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة وترك الأصنام التي في القلب، بل المراد كسرها من القلب أولاً)[1].

والاعتداد بالذات إلىٰ الحد الذي يجعلها إلهـًا يبذل لها الإنسان كل شيء هو آفة العصر الفاتكة، وأحد نواتج الحضارة الغربية الداعية إلىٰ تضخيم الذات وجعلها مرتكزاً تبنىٰ عليها المفاهيم والتصورات، ومن خلالها تتم عمليات التقييم والمعايرة، فما الفرق بعد ذلك بين إنسان الجاهلية الأولىٰ الذي نزل القرآن بذمه وبين إنسان الحضارة الغربية الذي يعيش لذاته وللذاته؟ كلاهما معرض عن الشرع والوحي، لا لأنَّ الحجة الشرعية صرفته ولا لأن البرهان العلمي دله، وإنما لأنه يتبع ما تهواه نفسه ويسلك كل سبيل تشتهيها نفسه، قال الحسن البصري: (لا يهوىٰ شيئـًا إلا تبعه)[2].

---

(١) روضة المحبين، ص٥٣٣.

(٢) موسوعة التفسير المأثور ١٦/ ١٠٨.

أول امرأة

ثمة أيام وأوقات احتفىٰ القرآن بها، وعرض تفاصيل أحداثها، لما لها من الأهمية والشأن، ولما لمعرفتها من الإضافة الفكرية والأخلاقية في نفوس المؤمنين بالآيات التي تنزلت بها، وإنَّ من أهمها وأعلاها شأنًا بدء الخليقة وما جرىٰ فيها من أمور كخلق آدم وتعليمه الأسماء كلها وإسجاد الملائكة له وحسد إبليس وكبريائه عن السجود لآدم ولعنة الله له ودخول آدم الجنة وأكله من الشجرة المنهي عنها ثم خروجه منها.

ولقد صار المؤمنون بكتاب الله التالون لهذه القصص عالمين بكيفية نشوء الخلق وتاريخ أول الزمان ومبدأ الخليقة وعلاقة آدم بالشيطان، وصار لديهم تعريف بالإنسان ووظيفته وبالملائكة ووظائفها وبالشيطان ووظيفته، وتفسير صحيح للحياة والجنة والخير والشر وغير ذلك من المفاهيم التي ضل فيها أقوام بسبب كفرهم بالله وبكتابه.

والقرآن يذكر هذه الحوادث في آيات متفرقة وبأساليب متنوعة، لنتعلم منها ونهتدي بهداياتها، لا سيما وقد قدرها الله تعالىٰ في أول الزمان، وسنعرض في هذه السطور قصة حواء أُمِّ البشر، كما يعرضها القرآن؛ فكيف تحدث عنها القرآن؟

حواء السكن أمْ حواء الشر

في حين ترسخ الأساطير اليونانية القديمة - التي تعد من الركائز الفكرية التي بنيت عليها الحضارة الغربية - أنَّ كبير الآلهة «زيوس» عاقب أبا البشر «بروميثيوس» الذي تمرد عليه بأنْ أرسل إليه امرأة «باندورا» لتضله وتشقيه فجاءت إليه ومعها صندوق يحتوي علىٰ كل شرور العالم، فانتشرت منذ ذلك الحين الشرور وتفشىٰ الفساد[1]، يبين لنا القرآن حقيقة بدء خلق حواء، فيقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء:١]. وأنت تلحظ أنَّ هذا التعريف جاء في مستهل سورة النساء التي جاءت في تفصيل بعض الأحكام المتعلقة بهن، لأنَّ التعريف مما تبنىٰ عليه التصورات وفهم الأحكام، وكذلك يقول تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[الأعراف:١٨٩]. قال الطبري: (عرَّف عباده كيف كان مبتدأ إنشائه ذلك من النفس الواحدة)[2]. فحقيقة حواء أنها خُلقَت من آدم نفسه، فقد خلقها الله من أحد أضلاعه، وكما

---

(١) انظر: أساطير إغريقية: ٣/ ٨٥.

(٢) جامع البيان: ٦/ ٣٣٩.

أنَّ الله تعالىٰ خلق آدم من تراب فإنه خلق حواء من جسد آدم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (استوصوا بالنساء، فإنَّ المرأة خلقت من ضلع، وإنَّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإنْ ذهبت تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء)[1]. وهذا من إبداع الخالق سبحانه، إذ لم يخلقها كما خلق آدم، وإنما خلقها من آدم نفسه، لتكون جزءاً منه، ولتكون من لحمه ودمه، فيحصل الانسجام التام والتجانس الآدمي بين آدم وحواء.

ولقد خلق الله تعالىٰ آدم بمفرده وأسكنه الجنة، فكان آدم في الجنة يتنعم فيها بفضل الله عليه، لكنه كان موحش النفس لا يشعر بالأنس والسكون حتىٰ خلق الله له حواء؛ فعن ابن عباس وابن مسعود: (أنَّ الله تعالىٰ أخرج إبليس من الجنة حين لُعن، وأسكن آدم الجنة، فكان يمشي فيها وحشًا ليس له زوج يسكن إليها، فنام نومة فاستيقظ، وإذا عند رأسه امرأة قاعدة؛ خلقها الله من ضلعه، فسألها: من أنت؟ فقالت: امرأة. قال: ولمَ خُلقت؟ قالت: لتسكن إليَّ)[2]. فكانت حواء نعمة امتن الله بها علىٰ آدم، إذ لم تسكن نفسه بما في الجنة من النعيم حتىٰ ينعم الله عليه بالزوجة.

---

(١) أخرجه البخاري حـ ٣٣٣٥، ومسلم حـ ١٤٦٨.
(٢) جامع البيان: ١/ ٥٤٨.

والزوجة تخبر أنَّ وظيفتها - وهما إذ ذاك في الجنة - تسكين وحشة آدم.

ثم يهبط آدم إلىٰ الأرض ومعه زوجه. هو يسعىٰ في الأرض، وهي تسكن نفسه؛ ليستطيع القيام بواجبه، فآدم له وظيفة، وحواء لها وظيفة مختلفة. فأول هداية يجب علىٰ الأمة أنْ تفهمها وهي أنَّ الحياة لا تصلح إلا بالزواج، ولا تستقر إلا به، حتىٰ لو كانت الحياة في وسط الجنة المملوءة نعيماً وترفاً ولهواً وزينة، وأنَّ الذين ينشدون الاستقرار والطمأنينة في أي شكل من أشكال التمتع خارج إطار الزوجية الفطرية إنما يسعون لمعاكسة ما جُبلوا عليه ومخالفة فطرهم، فلا ريب بعد ذلك أنْ ينعكس استقرارهم اضطراباً وشتاتاً، وأنْ تؤول سكناهم وحشة وجفافاً، قال ابن كثير: (وهي حواء عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرآها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه)[1].

إذا قامت الزوجة بوظيفتها في بيتها كما ينبغي ملأته أُنساً وراحة وسكينة وحبوراً، فسيَّدت زوجها وعطفت علىٰ أولادها، فصارت سبباً في نجاح زوجها وصلاح أولادها، وقديماً قالوا: وراء كل رجل عظيم امرأة، لأنها تدفعه إلىٰ المكارم، وتسكن وحشته التي تلاحقه وهو يسعىٰ في الأرض، وتصنع الأمان لأولاده وتعلمهم الديانة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٦.

والمروءة والمكارم، مما لا تستطيعه اليوم إلا القليل من المؤسسات الغنية بالمال والخبرات، فأي وظيفة أهم من وظيفة المرأة السكن!

وحين نزعت بعض النساء عنها صفة السكن، وخرجت تعمل كما يعمل الرجل وتسعىٰ في الأرض كما يسعىٰ شقيت البيوت وتعس المجتمع وجفت أنهار الحياة، وعاش الناس في اضطراب روحي وقلق نفسي، إلا ما رحم ربك.

لا يكون السكن إلا بزوجة، ولو كان ذلك في الجنة، ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[البقرة:٣٥]. معًا يسكنان، ومعًا يأكلان، ومعًا يتنعمان، ومعًا يتعاونان علىٰ طاعة الله.

هذه حواء، وتلك حقيقة المرأة...

والقرآن يبين لنا أنَّ حواء مساوية لآدم في الخطاب التكليفي، فيقع عليها الأمر والنهي الذي يقع علىٰ آدم، وتتحمل نتيجة الخطأ كما يتحمل آدم، فيقول تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[البقرة:٣٥-٣٦]. ويعقِّب القرآن بتعقيب عام يشمل الذكر والأنثىٰ علىٰ السواء، فيقول تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا

ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٣٧-٣٩]. ولذلك وجب علىٰ المرأة أنْ تتعلم من الشريعة ما تقيم به دينها ويجنبها الوقوع في الإثم وينجيها من العذاب يوم القيامة، قال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

التعري... الشقوة المعجلة

في سورة الأعراف تذكر لنا الآيات فصلاً عجيباً من حادثة الأكل من الشجرة المنهي عنها في الجنة، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[الأعراف:١٩-٢٣].

وفي هذا الفصل وسوس الشيطان إلىٰ آدم وحواء، فقال لهما: إنَّ الأكل من الشجرة المنهي عنها شيء حسن، ومن أكل منها صار ملكاً

وانتفىٰ عنه الموت، وحلف لهما بالله إنه صادق ناصح، فلما أكلا منها كانت عقوبة ذلك أنْ سقطت عنهما ثيابهما وبدت سوءاتهما، قال الواحدي: (والمعنىٰ حدَّثهما الشيطان في أنفسهما ﴿لِيُبۡدِيَ لَهُمَا﴾ هذه لام العاقبة، وذلك أنَّ عاقبة تلك الوسوسة أدت إلىٰ ظهور عورتهما، وإنما كانت الوسوسة للمعصية لا لظهور العورة، ولكن تأدَّت العاقبة إلىٰ ذلك)[1].

وبهذا وقع للشيطان ما أراد، من إيقاع آدم وزوجه في الخطيئة وإحزانه إياهما بسقوط ثيابهما وتعريهما لبعضهما، فكان هذا الفصل أول إيقاع لبني آدم علىٰ يد عدوهم الشيطان، ولذلك حذر الله تعالىٰ من اتباع الشيطان والسير في طرقاته، لأنه يزين المعصية بغرض إيقاع الناس في التعري، فإذا وقعوا في التعري ولم يتوبوا ويستيقظوا من غفلتهم جرهم ذلك إلىٰ أنواع الفواحش التي يزينها لهم الشيطان ويحسِّنها في عقولهم، قال تعالىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[الأعراف:٢٧-٢٨].

---

(١) الوسيط: ٢/ ٣٥٦.

ولم تكن هذه الخطة الشيطانية في التعري فلتة في الزمان، أو وقعت لمرة وكفىٰ، بل هي الخطة المتبعة دائمـًا، في كل مرة يعزم فيها الشيطان علىٰ إغواء بني آدم، ينزع عنهم لباسهم فيشقون. فتأمل مكانة التعري عند الشيطان وأهميته في إغواء الناس.

لذلك كان التعري ونزع حجاب المرأة هدفـًا رئيسيـًا في كل حملة استعمار نالت البلدان الإسلامية، إذ لا يتم احتلال الأرض إلا بانحلال العرض، والخطوة الأولىٰ في ذلك: نزع اللباس! وقد ذكر المؤرخ الجبرتي في أحداث سنة ١٢١٥هـ شيئـًا من أثر الحملة الفرنسية علىٰ بلاد مصر فقال: (ومنها تبرج النساء وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلىٰ مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم، وهن حاسرات الوجوه لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن علىٰ مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقـًا عنيفـًا مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن، وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في اخفائه، فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر وحاربت الفرنسيس بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما

استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فزيُّوهن بزي نسائهم، وأجروهن علىٰ طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهم من النساء الفواجر...

ومنها أنه لما أوفىٰ النيل أذرعه، ودخل الماء إلىٰ الخليج، وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس، ومصاحبتهم لهن في المراكب والمرقص والغناء والشرب في النهار، والليل في الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المجاديف بسخيف موضوعاتهم وكتائف مطبوعاتهم...)[1].

هكذا روىٰ الجبرتي، ولا تزال هذه عادة جنود الشيطان في إشاعة الفاحشة ونشر (قيم الغرب)، وقد سجل مالكوم إكس ملاحظته علىٰ النساء في بيروت حين زارها بعد حجه البيت الحرام سنة ١٣٧٩هـ، فقال: (في فندق بالم بيتش في بيروت نعمت بأول ضجعة طويلة لي منذ أنْ غادرت أمريكا. بعد ذلك بدأت التمشي وأنا عائد لتوي من الأراضي المقدسة، وكان أول شيء لفت انتباهي هو لبس وسلوك المرأة اللبنانية. في الأراضي المقدسة النساء أنثويات ومتواضعات.

(١) عجائب الآثار: ٢/ ٣٤٦.

وفجأة هذا النقيض من المرأة اللبنانية نصف الفرنسية ونصف العربية والتي تعطي انطباعاً بالإقدام والحرية، رأيت بوضوح الأثر الأوروبي علىٰ الحياة اللبنانية. أوضح لي ذلك أنَّ قوة أي بلد أو ضعفها الأخلاقي يمكن قياسه بسرعة من أزياء وأسلوب النساء، خاصة الشباب منهن. في أي مكان تنطمس قيمه الروحية - إن لم تتحطم - ينعكس ذلك في النساء، انظر إلىٰ النساء في أمريكا، كبارهن وصغارهن، حيث لم تبق بالكاد أية قيم روحية)[1]. فهو يرىٰ اللباس النسائي مظهراً من مظاهر التأثر بالاستعمار، ومؤشراً علىٰ قوة المجتمع الأخلاقية وضعفه.

الستر من الواجبات الأولى

قال القرطبي: (وفي الآية دليل علىٰ قبح كشف العورة، وأنَّ الله أوجب عليهما الستر، ولذلك ابتدرا إلىٰ سترها. ولا يمتنع أنْ يؤمرا بذلك في الجنة، كما قيل لهما: ولا تقربا هذه الشجرة. وقد حكىٰ صاحب البيان عن الشافعي أنَّ من لم يجد ما يستر به عورته إلا ورق الشجر لزمه أنْ يستتر بذلك، لأنه سُترة ظاهرة يمكنه التستر بها، كما فعل آدم في الجنة)[2].

---

(١) مالكوم إكس الزعيم الشهيد لمسلمي أمريكا السود، ص٣١٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧/ ١٨١.

فالستر واجب، وقد شرعه الله ولما يزل آدم في الجنة، وهو الفطرة السوية المستقيمة، وبهذا نفهم شأنه عند الله تعالىٰ وشأنه كذلك عند الشيطان، لذلك عقب المولىٰ سبحانه علىٰ القصة بالتحذير من كيد الشيطان فقال: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾[الأعراف:٢٢].

وبالستر يتم الحياء وتكتمل المروءة ويجمل المظهر ويرضىٰ الإله سبحانه، وبالتعري يقل الحياء وتسقط المروءات ويتسلع الجسد وتنمو الفواحش ويذهب الدين ويفرح الشيطان. وليس هذا خاصاً بالنساء، بل هو للذكر والأنثىٰ، وإنما يختلف حد الستر بينهما.

وكون الستر من الواجبات الأولىٰ يجعلنا نعيد النظر في كل ما يتعلق باللباس والستر والتعري والكشف، ومعرفة الحلال والحرام منها، وما ينبغي وما لا ينبغي، وكيف لباس المرأة في صلاتها، وكيف يكون عند محارمها، وكيف يكون عند النساء، وكيف يكون عند الرجال الأجانب، ولأنَّ هذا الفصل في معركتنا مع الشيطان بدأ مبكراً منذ بدء الخليقة، فكيف يستهان بمسألة هذا بعض شأنها؟ ولماذا نعمد إلىٰ تربية صغارنا من البنين والبنات علىٰ التكشف والتعري، ونزينه في أعينهم ثم نراه تحضراً وجمالاً!

الأم الربانية

أنْ ينظر العلي الكريم سبحانه إلىٰ بيت من البيوت فيسبغ عليه من وافر نعمه وأفضاله وعطاياه فذلك كرم رباني وفضل إلهي عظيم؛ فكيف إذا أعلم الله تعالىٰ الناس بخبر هذا البيت ثم أثنىٰ علىٰ أهله وعبَّد الناس بتلاوة هذا الثناء علىٰ مرِّ العصور والأحقاب؟ تالله إنَّها المنَّة الكبرىٰ والكرامة العظمىٰ وهي عجيبة من عجائب الزمان. فيا لله ذلك الثناء الذي تفضل به الرب تبارك وتعالىٰ علىٰ عمران وأهل بيته وذريته حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[آل عمران:٣٣-٣٤]. وآدم ونوح وإبراهيم أنبياء اصطفاهم الله بالنبوة من قبل، أما عمران فليس بنبي لكنه لصلاحه اصطفاه الله وبارك عليه وعلىٰ أهل بيته، فكان من ذريته مريم، ثم من مريم عيسىٰ النبي عليهم السلام. قال قتادة: (ذكر الله أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين ففضلهم علىٰ العالمين. فكان محمد من آل إبراهيم)[1].

وعمران هو ابن ياشهم بن آمون من ذرية سليمان بن داود عليهما السلام، وكان حبراً صالحاً من أحبار بني إسرائيل وإماماً لهم في الصلاة وصاحب قربانهم ومن بيت لهم شأن في الديانة، وزوجه الطيبة هي أم مريم وجدة عيسىٰ عليه السلام: حنَّة بنت فاقوذ. وأم يحيىٰ بن زكريا

(١) جامع البيان: ٦/ ٣٢٨.

هي إيشاع، وعلىٰ القول بأنها -أيْ زوج زكريا- أخت حنة بنت فاقوذ أو القول بأنها أخت مريم بنت عمران فهي من نبتة مباركة، ويدلك ذلك علىٰ صلاح هؤلاء الرهط[1]، وقد أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ أم يحيىٰ فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾[الأنبياء:٩٠].

وهذه خريطة تقريبية للبيوت المصطفاة، وتوضيح لشجرة النسب المباركة التي أثنىٰ الله تعالىٰ علىٰ أهلها، فرضي الله عنهم ورحمهم وأبلغهم صلاتنا وسلامنا عليهم.

أمٌّ ذات رسالة

يغلب علىٰ الوالدين حب الخير لأولادهما، ويتمنيان أنْ يكون أولادهما علىٰ درجة مرضية لديهما من الاستقامة، وهذا أمر فطري عام، ويقتضي أنْ يكون الوالدان هما الباب الأول في إصلاح أولادهما، لكونهما القدوة الأولىٰ لهم، ولأنَّ الجزاء من جنس العمل، ولأنه لا يستقيم أنْ ينحرف الوالدان وفي الوقت نفسه يطلبان استقامة الأولاد! لكن القرآن هنا أبان عن حال الأم تحديداً، وهي أم مريم، وشرح لنا طرفاً من قصتها تبين عن صلاح هذه الأم ورغبتها فيما عند الله تعالىٰ وتعلق قلبها بمرضاته، فقال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾

(١) انظر: المصدر السابق وما بعده.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿
[آل عمران:٣٥-٣٦].

فأول ما يلفت القرآن عنايتنا في قدوة الأمهات حنة بنت فاقوذ أنها تقربت إلىٰ الله بأنْ نذرت حملها لله، أي جعلته وقفًا لعبادة الله وخدمة بيته ودينه، وتالله إنها منزلة عظيمة تلك التي تجعل هذه الأم تغلِّب الآجل علىٰ العاجل وتغلِّب الأجر علىٰ الغريزة وتغلِّب الإرادة العلمية علىٰ الإرادة العاطفية، فحب الولد غريزة الأم الطبيعية، تحب الولد وتأنس بقربه وضمه وشمه، ويرضيها منه سلامة حواسه وعافية بدنه ونحو ذلك، ومع هذا فنجد أم مريم تنزع عن نفسها ما تقتضيه هذه الغرائز لأجل مرضاة الله تعالىٰ؛ فكيف إذا علمتَ أنها لم تحمل إلا في كبر سنها!

قال ابن إسحاق: (تزوج زكريا وعمران أختين، فكانت أم يحيىٰ عند زكريا، وكانت أم مريم عند عمران، فهلك عمران وأم مريم حامل بمريم، فهي جنين في بطنها. قال: وكانت - فيما يزعمون - قد أُمسك عنها الولد حتىٰ أسنَّت، وكانوا أهل بيت من الله جل ثناؤه بمكان. فبينا هي في ظل شجرة نظرت إلىٰ طائر يطعم فرخًا له، فتحركت نفسها للولد، فدعت الله أنْ يهب لها ولداً، فحملت بمريم، وهلك عمران.

فلما عرفت أنَّ في بطنها جنينـًا جعلته لله نذيرة، و«النذيرة» أنْ تعبِّده لله، فتجعله حبيسـًا في الكنيسة، لا يُنتفع به بشيء من أمور الدنيا)[1].إذن النذيرة وتحرير الأولاد هو تخليص الذكور منهم من كافة أمور الدنيا كالسعي في الأرزاق والقيام علىٰ مصالح البيت ونحو ذلك وتفريغهم لأعمال بيوت الله وتعليم دين الله والدعوة إليه، فيلحق بالأنبياء والقائمين علىٰ أمور الدين من أهل العبادة والعلم.

فلما حملت امرأة عمران رضي الله عنها احتسبت هذا الأمر عند الله، وأرادت أنْ يكون من بطنها صاحب ديانة وتقوىٰ وخدمة لبيوت الله.

والمقصود أنه وإنْ كانت (حنَّة بنت فاقوذ) امرأة كالنساء إلا أنَّ حب الله تعالىٰ وابتغاء مرضاته وإرادة التقرب إليه كان علىٰ رأس الهرم في أولوياتها، وكان المحور الذي تدور حوله أفعالها ورغباتها وحاجاتها، وكان النقطة التي منها تنطلق إراداتها وبرنامج حياتها، بل كان بمثابة اللبنات التي تبني بها بيتها وتؤسس عليها حياة مَن بعدها مِن نسلها.

شعور هذه الأم بأنَّ مقصود الحياة التي أوجدنا الله تعالىٰ فيها هو عبادته والسعي إلىٰ رضاه كان حاضراً في وجدانها وكلماتها، كان عالقـًا في ماجريات حياتها، تأمَّل صورة هذه الأم وهي ترقب طفولة

---

(١) المصدر السابق: ٦/ ٣٣٠.

الحيوانات والطيور فتتحرك رغبتها في الولد، لا لضمه وشمه ولثمه، وإنما لأجل إيجاد عبد لله، يقول لا إله إلا الله، ويبني حياته علىٰ هذا الأساس!

هذا يا كرام هو عمق المعرفة بحق الله تعالىٰ علينا، بل هو حق اليقين.

وتأمل الصورة الأخرىٰ: يكبر سن امرأة عمران دون أنْ تحمل، ثم تحمل علىٰ كبر سنها، ثم يموت زوجها في مدة حملها؛ مما يزيد الرغبة في الولد للأنس والرعاية علىٰ الكبر، فتنذره محرراً خالصاً لله، فلا تستفيد منه لنفسها في دنياها ألبتة.

وفي هذا درس كبير جعله الله تعالىٰ للأمهات في عرض قصة من رضيها الله تعالىٰ أنْ تكون قدوة لهن:

فهي قدوة لهن في معرفة مقصود الحياة، وأنَّ المقصود الأسمىٰ – علىٰ مر العصور والأحقاب – هو عبودية الله تعالىٰ.

وهي قدوة لهن في طريقة تفكير الأم تجاه أولادها، وأنه ينبغي أنْ يكون عندها أمومة صالحة في أولادها تفوق الأمومة الطبيعية المقتصرة علىٰ الرعاية البدنية والأنس العاطفي وإشباع الغريزة. هذا سيفضي بالأم إلىٰ الاهتمام الديني بأولادها وتربيتهم علىٰ ما يرضي الله وتقديمهم فداء لدين الله وخدمة له.

وهي قدوة لهن في تأسيس البيوت المسلمة، والاستجابة لما يحبه الله تعالىٰ من ولادة من يشهد ألَّا إله إلا الله ولا يعبد إلا الله، وحرصاً علىٰ الأجر المترتب علىٰ ذلك، فإنَّ البيت الذي ينجب مؤمنين موحدين بيت صالح، وهو خير من البيت الذي يقدر علىٰ الإنجاب ثم يمتنع عنه.

وهي قدوة لهن في استثمار حياة الأولاد فيما يعود عليهن بالأجر الموفور من الله، وتقديم ذلك علىٰ مصالح الدنيا وعلىٰ إشباع غريزتها الأُمية.

الأم الرسالية هي التي تطمح أنْ يكون وليدها عنصراً فاعلاً في أمته، نافعاً لدينه، صالحاً في نفسه، هكذا كانت امرأة عمران، وهكذا كانت نساء أصحاب النبي ﷺ: طموحهن إعداد الجيل الجديد لإعلاء دين الله تعالىٰ، فما كان عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر والحسن والحسين وقائمة الثلة المضيئة من صغار الصحابة إلا نتاجاً مباركاً وذرية طيبة من أمهات عرفن رسالتهن في الحياة.

ألا ترىٰ إلىٰ صنيع الصحابية الجليلة أم سليم في ابنها أنس بن مالك حين هاجر النبي ﷺ! قال أنس: (أخذتْ أم سليم بيدي مقدم النبي ﷺ فأتتْ بي رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، هذا ابني، وهو غلام كاتب). أي وهبته لخدمتك لعله ينال من علمك وبركتك ونؤجر

فيما وهبناه، وكان عمره آنذاك ثمان سنين أو عشر سنين[1].

الأم التي تدرك المقصود من حياتها وحياة أولادها هي التي يتكئ عليها المجتمع في نهوضه ويسند إليها ظهره في أزماته، وهي الرصيد الاستراتيجي في نصرة دين الله تعالىٰ بتحرير أولادها لله تعالىٰ من كل عبودية وارتباط يقيدهم عن أداء حق الله وحق الأمة عليهم، ولا يثنيها عن ذلك الخوف علىٰ الولد من الموت أو العوز أو البعد.

حتىٰ الاسم، لم يكن مجرد اسم، بل أسمت امرأة عمران ابنتها تسمية دالة علىٰ إدراكها لمقصود الحياة ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾. قال الشوكاني: (ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلىٰ الله سبحانه، وأنْ يكون فعلها مطابقًا لمعنىٰ اسمها، فإنَّ معنىٰ مريم خادم الرب بلغتهم، فهي وإنْ لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع أنْ تكون من العابدات)[2].

هذه الآية القرآنية الخالدة نزلت لتذكر أمهات أمة الإسلام بالنموذج الأحسن والأقوم للأمومة الصالحة، أعني نموذج امرأة عمران، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]. ولذلك فإنَّ زكريا عليه السلام حين رأىٰ ما رأىٰ من

(١) الطبقات الكبير: ٥/ ٣٢٦، الاستيعاب: ١/ ١٠٩.
(٢) فتح القدير: ١/ ٣٨٤.

هذا النسل المبارك، تحركت نفسه لطلب الولد، لكنه أراد صلاح هذا الولد واستقامته، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[آل عمران:٣٨]. وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[مريم:٤-٦]. قال السعدي: (وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأنَّ طلبه للولد ليس كطلب غيره؛ قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين والخوف من ضياعه، ورأىٰ غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين ومعدن الرسالة ومظنة للخير، فدعا الله أنْ يرزقه ولداً يقوم بالدين من بعده)[1].

التربية بالدعاء

أنت بصدد الحديث عن أمٍ أنجبت أكمل النساء، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون)[2]. لكننا لا نملك مستقبل أولادنا وليس لدينا ضمانة بصلاحهم، فما هي أقوىٰ وسائل التربية التي ذكرها الله تعالىٰ لنا عن امرأة عمران؟

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٩٩٠.

(٢) أخرجه البخاري، حـ ٣٤٣٥.

لا شك أنَّ اللجوء إلىٰ الله وطلب الإعانة منه علىٰ التربية ودعاءه بصلاح الأولاد هو أعظم الوسائل التربوية، لا لأنه أمر مجرب معروف فحسب، ولا لأنه قربة محبوبة لله تعالىٰ فحسب؛ بل لأنَّ الدعاء أقوىٰ الأسباب كما ينص أهل العلم علىٰ ذلك استقراءً من نصوص الوحي، قال ابن القيم رحمه الله: (فالدعاء من أقوىٰ الأسباب، فإذا قُدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أنْ يقال: لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال: لا فائدة في الأكل والشرب وجميع الحركات والأعمال، وليس شيء من الأسباب أنفع من الدعاء، ولا أبلغ في حصول المطلوب. ولما كان الصحابة ﷺ أعلم الأمة بالله ورسوله ﷺ وأفقههم في دينه كانوا أقوم بهذا السبب وشروطه وآدابه من غيرهم. وكان عمر ﷺ يستنصر به علىٰ عدوه، وكان أعظم جنديه، وكان يقول لأصحابه: «لستم تُنصرون بكثرة، وإنما تُنصرون من السماء». وكان يقول: «إني لا أحمل همَّ الإجابة، ولكن همَّ الدعاء، فإذا أُلهمتُ الدعاء فإنَّ الإجابة معه». فمن أُلهم الدعاء فقد أُريد به الإجابة، فإنَّ الله يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر:٦٠])[1].

وامرأة عمران بعد أنْ تبين حملها نذرت تحرير وليدها لله تعالىٰ، وهي حينئذٍ لا تعلم أنها تحمل أنثىٰ، وطلبت من الله قبول هذه النذيرة،

(١) الداء والدواء، ص٢٨.

قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[آل عمران:٣٥]، فلما وضعتْ توجهت إلىٰ الله تعالىٰ داعية متضرعة خاشعة، معتذرة بأنَّ الذي ولدته أنثىٰ ولم يكن التحرير إلا للذكور، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾[آل عمران:٣٦]. فقالت ابتداء: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ قال ابن عطية: (لفظ خبر في ضمنه التحسر والتلهف. وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحررون الإناث لخدمة الكنائس ولا يجوز ذلك عندهم، وكانت قد رجت أن يكون ما في بطنها ذكراً فلما وضعت أنثىٰ تلهفت علىٰ فوت الأمل وأفزعها أنْ نذرت ما لا يجوز نذره)[١]. إذ يختلف الذكر عن الأنثىٰ، قال ابن كثير: (في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصىٰ)[٢]. وقال البغوي: (لعورتها وضعفها وما يعتريها من الحيض والنفاس)[٣]. فهذا الاعتذار متعلق بطلب قبول دعائها الأول الذي دعت به ربها تبارك وتعالىٰ.

ثم إنها دعت الله تعالىٰ أنْ يعيذ ابنتها مريم، وذرية مريم فيما بعد، من نزغات الشيطان ووسوسته وإضلاله وإغوائه، فقالت: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[آل عمران:٣٦].

---

(١) المحرر الوجيز: ٢/ ٣٨٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٣٧.
(٣) معالم التنزيل: ١/ ٣٤٤.

ففعل الدعاء فعله في القدر، واستجاب الله تعالىٰ طلب الأم الصالحة، قال تعالىٰ: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًا ۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران:٣٧].

لقد تقبل الله ابنتها محررة للعبادة ولخدمة المسجد الأقصىٰ علىٰ خلاف العادة، وأنبت الله تعالىٰ مريم نباتاً حسناً أي: جعلها شكلاً مليحاً ومنظراً بهيجاً، ويسر لها أسباب القبول، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم الخير والعلم والدين[1]. فمن استجابة الله لدعاء الأم الصالحة سخر الله تعالىٰ لمريم صحبة الأنبياء والصالحين، فتشكل لها وسط صالح تتربىٰ في معاطفه، واتصلت بالمسجد الأقصىٰ وعامريه، ومن هنا نقول: إنَّ الدعاء سبب في توفير وسط صالح للأولاد، وسبب في توفير بيئة تربوية ينتفعون منها بإذن الله، وينبتون فيها نباتاً حسناً. قال تعالىٰ: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ إذ ولدت يتيمة، قال ابن كثير: (وإنما قدَّر الله كون زكريا كافلها لسعادتها، لتقتبس منه علماً جماً نافعاً وعملاً صالحاً؛ ولأنه كان زوج خالتها، علىٰ ما ذكره ابن إسحاق وابن جرير وغيرهما، وقيل: زوج أختها، كما ورد في الصحيح:

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٣٩.

«فإذا بيحيىٰ وعيسىٰ، وهما ابنا الخالة»[1]، وقد يطلق علىٰ ما ذكره ابن إسحاق ذلك أيضًا توسعًا، فعلىٰ هذا كانت في حضانة خالتها. وقد ثبت في الصحيحين[2] أن النبي ﷺ قضىٰ في عمارة بنت حمزة أن تكون في حضانة خالتها امرأة جعفر بن أبي طالب وقال: «الخالة بمنزلة الأم»[3].

وأجار الله تعالىٰ مريم وابنها من نزغات الشيطان، قال أبو هريرة رضي الله عنه: (سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخًا من مس الشيطان، غير مريم وابنها)[4].

فتأمل عناية الرب تعالىٰ بمريم عليها السلام، وكيف أنَّ الله حفظها ورعاها بدعوة أمها، وكيف تقلبت أحوالها في معاطف الخير والزكاء والاصطفاء، حتىٰ أنَّ زكريا لما رأىٰ كل هذا اللطف الرباني بها بدعوة أمها لجأ إلىٰ الله داعيًا متضرعًا أنْ يكون من حاله كما كان من حال امرأة عمران التي استجاب الله لها دعاءها علىٰ كبر سنها ويتم

---

(١) أخرجه البخاري، حـ ٣٤٣٢.

(٢) البخاري حـ ٢٧١٧، ولم أجده في صحيح مسلم، وقال الألباني في تخريج الحديث في إرواء الغليل ٧/ ٢٤٩: تنبيه: لقد عزا المصنف هذا الحديث إلىٰ المتفق عليه، وهو في ذلك تابع للسيوطي في «الجامع الصغير» و «الكبير» (١/ ٣٣٩/ ١)، وهو وهم عنه فليس الحديث عند مسلم، وإنما لديه المناسبة التي وردت فيها قصة الحديث فليُعلم ذلك.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٤٠.

(٤) أخرجه البخاري، حـ ٣٤٣٣.

ابنتها، وقد وصف الله هذه الحال من زكريا فقال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[آل عمران:٣٧-٣٨].

الدعاء الدعاء -أيها الآباء والأمهات- أمضىٰ سلاح وأقوىٰ سبب يستجلب به صلاح الأولاد والذرية. ولذلك فإنَّ الله أيضاً استجاب لزكريا عليه السلام، فكانت معجزةً أنْ يرزق الولد علىٰ كبر سنه وسن زوجه، ثم يصلح الله ابنه ويجعله نبياً، قال تعالىٰ: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٣٩-٤٠].

القوة الربانية والقدرة المطلقة لله تعالىٰ هي ما يجعلنا نلجأ إليه في إصلاح أولادنا ومباركتهم؛ حتىٰ وإنْ كانوا يعيشون في أوساط غير ملائمة. ألا ترىٰ أنَّ زكريا يقول: أنىٰ يكون لي غلام؟ فيقول الملك له: كذلك الله يفعل ما يشاء.

ومن أهم الدعوات التي نسديها لأولادنا علىٰ سبيل التقويم والإصلاح: أنْ يعيذهم الله من شر الشيطان ونزغاته، فهذه أم مريم تقول: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾. لأنَّ الشيطان

توعد ذرية آدم وأقام الرصد لإغوائهم وإيذائهم وأقسم أنْ يزين لهم تغيير فطرتهم، وقد علمنا النبي ﷺ تعويذ الأولاد وأخبرنا أنَّ الأنبياء عليهم السلام كانوا علىٰ هذه السنة؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين، ويقول: إنَّ أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة)[1]. والشيطان عدو دائم للذرية، لا يألو جهداً في إغوائهم وإيذائهم، قال رسول الله ﷺ: (لا ترسلوا فواشيكم وصبيانكم إذا غابت الشمس حتىٰ تذهب فحمة العشاء، فإنَّ الشياطين تنبعث إذا غابت الشمس حتىٰ تذهب فحمة العشاء)[2]. وقد أقسم علىٰ أنْ يكون كذلك أبد الدهر، كما أخبرنا الله إذ قال: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ [الإسراء:٦٢-٦٥].

---

(١) أخرجه البخاري، حـ ٣٣٧٥.

(٢) أخرجه مسلم، حـ ٢٠١٣.

ليس الذكر كالأنثى

طبيعة خلْق الأنثىٰ المغايرة لخلْق الذكر، وأنَّ في المرأة بعض اختلاف في جسدها الخارجي والداخلي وما ينتج عنه من اختلاف الوظائف كمّاً وكيفاً عن الرجل يضع بصمته علىٰ قوَّتها الجسدية والعقلية، فليس الذكر كالأنثىٰ؛ هكذا قالت امرأة عمران معتذرة إلىٰ الله في نذرها، والاختلاف في الجسد الخارجي يظهر بعضه في الثدي والفرج وقوة العضلات، والاختلاف في الجسد الداخلي يظهر بعضه في الرحم والدماغ وحجم العظام، وهذا الاختلاف الطبيعي أحكمه الله تعالىٰ ليكون لكلٍّ من الذكر والأنثىٰ وظيفته التي تلائم طبيعته، فالحمل والولادة والرضاع والحضانة والرعاية والتربية للأنثىٰ، والأعمال الشاقة والأحمال الثقيلة والجهد البدني المضاعف - كالجهادِ والصفقِ في الأسواق - والقرارات الاستراتيجية والقوامة للذَّكَر، وهكذا يكون التكامل في الحياة. فالاختلاف يعني عدم التساوي. قال ابن عاشور: (ونفيُ المشابهة بين الذكر والأنثىٰ يقصد به معنىٰ التفضيل في مثل هذا المقام، وذلك في قول العرب: ليس سواء كذا وكذا، وليس كذا مثل كذا، ولا هو مثل كذا، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:٩]. وقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[الأحزاب:٣٢])[1].

---

(١) التحرير والتنوير: ٣/ ٢٣٤.

والمقصود أنَّ امرأة عمران لم تجد غضاضة وهي تناجي ربها أنْ تعترف بأفضلية الذكور علىٰ الإناث، علىٰ الأقل فيما يخص هذه الوظائف الدينية العامة، لما يترتب علىٰ القيام بها من الأجر العظيم، وإن تعترف لله باختلافهما بما يجعل مخالطة مريم بالرجال ووجودها في المسجد حال الحيض غير سائغ. وهو تفضيل عام لا يتعلق بالأجر، وإنما يتعلق بالمسؤوليات والواجبات، وعلىٰ القيام بها يكون الأجر، وعلىٰ إهمالها يكون التعرض للإثم، فهو إذاً تفضيل دنيوي لا أخروي، وتفضيل فطري كوجب لتحمل الرجال المزيد من الواجبات والمسؤوليات دون النساء، ألا ترىٰ أنَّ الله أثنىٰ علىٰ امرأة عمران وابنتها مريم بثناء عظيم وهما امرأتان؛ واصطفاهما فيمن اصطفىٰ علىٰ العالمين، قال السعدي: (وصارت هذه الأنثىٰ أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم)[1]. وليس في هذا التفضيل غضاضة؛ فهو أمر متكرر معتاد في الشريعة، مثل تفضيل الوالدين علىٰ الأولاد، وتفضيل الكبار علىٰ الصغار ومتكرر في الأعراف والنظم كذلك بدون نكير ولا شعور بالعقدة، ولم يحدث هذا الشعور إلا بعد بث النظم الكافرة بقوتها القانونية والإعلامية فكرة المساواة بين الجنسين والشعور بعقدة النقص في الأزمنة المتأخرة.

ولقد تمنَّت بعض النساء أنْ يكون لهن مشاركة الرجال في بعض

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ١/ ٢١٨.

الأعمال الخاصة بالرجال رغبة منهن في حصول الثواب والأجر، كوجوب الجهاد في سبيل الله علىٰ الرجال، فأنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[النساء:٣٢]. قال الطبري: (ذكر أنَّ ذلك نزل في نساء تمنين منازل الرجال، وأنْ يكون لهم ما لهم، فنهىٰ الله عباده عن الأماني الباطلة، وأمرهم أنْ يسألوه من فضله، إذ كانت الأماني تورث أهلها الحسد والبغي بغير الحق)[1]. وفي قوله تعالىٰ: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ دليل علىٰ أنَّ أفضلية الآخرة ومنازل الأجر والإثم إنما تكون علىٰ ما يعمله الإنسان، ذكراً كان أو أنثىٰ، وليس علىٰ موقعه ومكانته.

(١) جامع البيان: ٦/ ٦٦٣.

درة العابدات

ها هي مريم بنت عمران تطويها الأيام والسنون وهي تتقلب بين خدمة بيت المقدس والقيام في محرابها تصلي لله تعالىٰ، وذلك بعد أنْ أصبحت في كفالة زكريا عليه السلام، وهو النبي والمقدم في بني إسرائيل آنذاك، وذلك لموت أبيها قبل أنْ تولد، فنشأت يتيمة بقدر من الله. وقد أكرمها الله بأنْ عطف القلوب عليها كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[آل عمران:٤٤]. وأكرمها سبحانه بإجراء الكرامات لها كما في قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٣٧]. وأكرمها الله تعالىٰ بأنْ اصطفاها واختارها وطهرها وجعلها أُمًّا لنبي عظيم ورسول من أولي العزم من الرسل، قال السعدي: (من أعظم فضائلها أنْ تُذكر في الكتاب العظيم الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تُذكر فيه بأحسن الذكر وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل وسعيها الكامل)[1]. وفي خلال كل ذلك من الدروس والعبر والتوجيه والتربية القرآنية ما يرسم للمؤمنة طريق السمو والارتقاء في مدارج العبودية وسبيل الاصطفاء الرباني.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٩٩٣.

مريم بنت عمران... المرأة التي اصطفاها الله علىٰ نساء العالمين.

ما هي مقومات هذا الاصطفاء وكيف استحقت ثناء الله عليها في الكثير من المواضع؟ وفي هذه المواضع تفصيل وإجمال، فأما الآية التي أجملت صفات مريم الطاهرة فهي قوله تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾[التحريم:١٢]. وإنْ تعجب فليكن عجبك من ختام سورة التحريم، تلك السورة التي تعالج إصلاح الزوجة والأهلين، فقد ختمها الحق سبحانه بالإشارة إلىٰ هذه المرأة الصالحة الطاهرة، لتكون قدوة النساء، زوجات وعزَّاباً، ومثلاً للذين آمنوا، كيف لا، وقد قال النبي ﷺ (لم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون)[1]. وقال ﷺ أيضاً: (خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد)[2].

القنوت طريق الاصطفاء

لقد كان اجتهاد مريم في التعبد واعتناؤها بصلاتها سبيلاً مؤدياً إلىٰ الاصطفاء والتكريم، قال الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ

(١) أخرجه البخاري، حـ ٣٤٣٥.
(٢) أخرجه مسلم، حـ ٢٤٣٠.

ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾[آل عمران:٤٢-٤٣]. فهذا الخطاب الذي وجهته الملائكة لمريم يفيد أنَّ ثمن الاصطفاء الرباني كامن في القنوت لله رب العالمين وفي دوام السجود والركوع له، قال ابن كثير: (أيْ اختارها لكثرة عبادتها وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوسواس، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها علىٰ نساء العالمين)[1]. لقد كانت تلتزم موضع صلاتها فلا تفارقه إلا لخدمة بيت المقدس أو لقضاء حاجاتها التي لا بد لها منها، كالأكل والتطهر.

فالاصطفاء هو الاختيار، وهو اختيار إلهي لمريم عليها السلام لتكميلها وتطهيرها وجعلها محلًّا لإجراء كراماته سبحانه، وما ذلك إلا لما وفقها الله إليه من طول التعبد وحسن التخشع له في صلاتها وكثرة ذكرها له في محرابها. وهذا عين ما يحبه الله من المرأة المؤمنة؛ أنْ تحسن التعبد وأنْ تكثر من الركوع والسجود وأنْ تطيل القيام والركوع والسجود لتقترب من الله تعالىٰ فيزيدَ في بركتها ويعلي من درجتها ويدلها علىٰ ما يطهرها من الأدناس والقاذورات فتصبح متجهة نحو الكمال البشري. ولذلك ثنَّىٰ الله تعالىٰ هذا الاصطفاء والتطهير والاختيار بأمرها بالازدياد من التعبد والولوج في باحة القانتين: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٤٤.

والقنوت في أصل معناه: الطاعة في خشوع[1]. وهو هنا يتضمن معنىٰ أخصَّ، فقول الملائكة لمريم -تبليغًا عن الله- اقنتي أيْ أطيلي القيام في الصلاة؛ وهو قول الجمهور[2]، ولذلك امتثلت أمر ربها، فأطالت القيام في صلاتها حتىٰ ورمتْ قدماها؛ كما ذكر ذلك مجاهد[3]، وذكر العلماء أحوالًا لها في طول صلاتها تدلل علىٰ اعتنائها الشديد بأمر الصلاة وخشوعها وتطويلها وركودها في القيام والركوع والسجود.

إنَّ إحسان العبادات والاعتناء بحقوق الله تعالىٰ ومشاهدة إنعامه علىٰ عبده هي ما يرفع الإنسان إلىٰ المراتب العليا، وهي ما يسمو بإيمانه إلىٰ درجة اليقين، ولكن ذلك يحتاج من العبد أنْ يجاهد نفسه والشيطان ليتقن العمل ويداوم علىٰ فعله، وأنْ يبذل وسعه في تحقيق معاني العبودية القلبية والعملية، ويحتاج منه إلىٰ استقامة دائمة في الخفاء والعلن، وحين الانفراد وحين الاجتماع، وفي الجلوة وفي الخلوة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[العنكبوت:٦٩]. ويحتاج منه إلىٰ التقليل من حطام الدنيا والرغبة عنها إلىٰ ما عند الله، لأنَّ الاستكثار من الدينا مشغل عن العبادات.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٤٥.

(٢) المحرر الوجيز: ٢/ ٤١٢.

(٣) جامع البيان: ٥/ ٣٩٨.

ولم تكن أمور الدنيا وشؤونها حاضرة في مشهد الاصطفاء والتكريم، فقد نشأت مريم بنت عمران يتيمة، نائية عمَّا يشغل كثيراً من النساء مما لا يعني ومما لا ينفع، وقد تطهر قلبها من حب المال والثراء، بل قد تطهر قلبها من حب الظهور والاشتهار؛ الأمر الذي حدا بها إلىٰ اتخاذ موضع لها بعيداً عن أعين الناس ومخالطتهم، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا﴾[مريم:١٦-١٧]. قال ابن عطية: (والانتباذ التنحي. قال السدي: انتبذت لتطهر من حيض. وقال غيره: لتعبد الله. وهذا أحسن؛ وذلك أنَّ مريم كانت وَقْفًا علىٰ سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت من الناس لذلك)[1].

كما أنها ترضىٰ بما يكتبه الله من رزق قلَّ أو كثر، وتنسبه إليه وحده، فلا ترىٰ إلا فضل الله عليها، ولقد كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد طعاماً عندها في غير وقته وزمانه، فيسألها عن مصدره وكيفية الحصول عليه، فلا تجيبه إلا بأنْ تقول: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾. فكم في هذه الإجابة القصيرة من اليقين بالله والرضا بأمره وشكره علىٰ عطاياه وردِّ الفضل إليه والتأدب معه سبحانه والخضوع له حتىٰ إنها لتستسر بكرامة الله لها! وكم في هذه الإجابة من طهارة القلب من الشوائب، وسمو النفس عن النقائص، وتعلق الروح ببارئها!

---

(١) المحرر الوجيز: ٦/ ٤٨٢.

إنَّ من أجلِّ مقاصد إحسان التعبد لله هو أنْ يجعل قلبك نقيـًا مصفًّىً خالصـًا لله، وهذا يعود بك إلىٰ أصل معنىٰ القنوت، والمرأة القانتة لربها هي تلك التي أحسنت عباداتها حتىٰ أُخلص قلبها لله، ورغبت عن الدنيا وحطامها ولعاعتها إلىٰ الله والدار الآخرة. فيا لله هذه المنزلة العلية، ويا لله هذه الرتبة السَنية.

ولعلك لحظت – فيما ذكرتُ لك من الأعمال القلبية التي زكت بها مريم عليها السلام – معنىٰ الإحسان الذي علمناه نبينا ﷺ في حديث جبريل المشهور، حين قال: (أنْ تعبد الله كأنك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنه يـراك)[1]. فإنَّ الإيمان والتوحيد والإنابة إلىٰ الله والإقبال عليه والتوكل عليه، وأنْ يَعبد الله كأنه يراه، إجلالاً ومهابة وحياء ومحبة وخشية؛ هو مقام الإحسان[2]، وهذا ما كانت عليه مريم الصديقة، فلم تكن ترىٰ إلا رحمة الله، ولا تلمس إلا لطفه، ولا تشعر إلا بقربه وتربيته لها، فهو الذي أنبتها نباتـًا حسنـًا، وهو الذي كفَّلها زكريا، وهو الذي كفاها رزقها، وهو الذي هداها وأصلح قلبها، وكانت هي الشاكرة له علىٰ كل ذلك، المخبتة له، القانتة له، القائمة بحقه علىٰ أحسن ما تستطيع امرأة، حتىٰ بلغت أعلىٰ مقامات الإحسان فصارت صدِّيقة كما وصفها الله تعالىٰ بذلك في قوله:

---

(١) أخرجه البخاري، حـ ٥٠.

(٢) بدائع الفوائد: ٣/ ١٨.

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾[المائدة:٧٥]. فإنَّ الصديقية -كما يصفها ابن القيم - هي كمال الانقياد مع كمال الإخلاص[١]. وهل كانت مريم عليها السلام في مختلف أحوالها إلا علىٰ هذه الحال.

وواجب المؤمنة أنْ تقتدي بمريم عليها السلام، وأنْ تسعىٰ إلىٰ نيل مرتبة الإحسان مقتدية بمريم، وأنْ تطمح إلىٰ بلوغ درجة الصديقية مقتدية بمريم، وأنْ تكون قانتة لله كما كانت مريم من القانتين، وليس ذلك بمعجز ولا بمستحيل، فإنَّ الله يعين من استعان به، ويدل علىٰ الطريق من استهداه، قال ابن القيم رحمه الله: (ولا تستبعدْ أنْ يمنَّ الله المنان علىٰ عبدٍ بمثل هذا الإيمان، فإنَّ فضل الله لا يدخل تحت حصرٍ ولا حسبان)[٢].

وحين نظرت إلىٰ نفسي، وقد هالني ما كانت عليه مريم الصديقة من القنوت والإحسان والتصديق والتسليم، وجدتها بعيدة عن هدي القرآن نائية عن استلهام القدوة فيه، مقصرة في حق الله تعالىٰ، غير محسنة ولا قانتة، فبكىٰ لأجل ذلك قلبي، وشكوت إلىٰ الله حالي، وأدعو الله الكريم المنان أنْ يجعلني وإياك من القانتين المحسنين، والتائبين الشاكرين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإنه لا يستجلب التوفيق للعبادة بمثل الاستعانة بالله ودعائه.

---

(١) مدارج السالكين: ٢/ ٢٥٨.

(٢) مدارج السالكين: ١/ ٤٤٢.

العفة مفتاح التكريم

نشأتْ مريم في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدىٰ العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل الدؤوب، وكانت في كفالة زوج أختها زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم، ورأىٰ لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره[1].

وفي ناحيةٍ شرقية عن بيت المقدس والبيوت الآهلة حوله، وبعدما قضت أعواماً متبتلة متعبدة في المسجد الأقصىٰ؛ لا تترك محرابها إلا لحاجة... هيأت لنفسها مكاناً خاصاً بها، يحجبها عن الناس، منفردة عن أهلها وعن الناس، ممتثلة أمر ربها بإدامة الصلاة وطول ركوعها وسجودها وقيامها.

وبينما هي في خلوتها إذ فجأها موقف عظيم، فقد اقتحم عليها في خلوتها (رجلٌ في صورة جميلة وهيئة حسنة لا عيب فيها ولا نقص)[2]، قد سواه الله وكمَّله، وكان ذلك الرجل هو جبريل عليه السلام، قد جاء بأمر من الله.

فلما رأته مريم وهي الفتاة الشابة، وهما في خلوة لا يراهما أحد، ولم تعلم أنه جبريل، وما حسبته إلا رجلاً يريد مراودتها عن نفسها

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٥/ ٢١٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ٣/ ٩٩٣.

كما قال ابن جريج[1]، فصرخت في وجهه مستعيذة بالله منه، قالت: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾[مريم:١٨]. فكان هذا أول موقف تمتحن فيه عفتها، فهي نافرة عن الفاحشة ومقدماتها وطريقها وكل سبب مفضٍ إليها؛ منذ اللحظة الأولىٰ.

والجزاء من جنس العمل؛ فحين رأىٰ جبريل عليه السلام ما تغشاها من الخوف والروع بشرها بأمر الله واختياره لها بحمل عيسىٰ عليه السلام وولادته، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا﴾[مريم:١٩]. فتعجبت من ذلك واستفهمت عن كيفية إنجاب الغلام، فهي غير متزوجة، وهي الطاهرة المحصنة العفيفة: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا﴾[مريم:٢٠-٢١]. وأبلغها جبريل بأنَّ الله أمره أنْ ينفخ في جيب درعها نفخة - وجيب الدرع هو الفتحة في أعلىٰ القميص التي تدخل رأسها منه حين تلبسه - فتدخل النفخة بأمر الله في فرجها، وتستقر في رحمها، فيتكون منها ولدٌ صحيح، هو عيسىٰ عليه السلام، فحملت مريم هذه النفخة المباركة.

فحملته علىٰ غير اختيار منها وصبرت علىٰ أمر الله، لكنها خافت الفضيحة وخشيت كلام الناس، فإنهم لا يصدقونها في أمرٍ

(١) جامع البيان ١٥/ ٤٨٦.

غير مألوف: حملٍ بلا زوج، وكيف أنها تحولت من عابدة مشهورة بالعبادة والتنسك إلىٰ زانية عاهرة في نظر الناس! وجرىٰ عليها من الآلام النفسية نتيجة هذا الحمل ما الله به عليم، إضافة إلىٰ الآلام الجسدية الناتجة عن الحمل، وخرجت من حالها الأولىٰ التي كانت عليها من عطف قلوب الناس عليها، واستقرارها في خلوتها للعبادة، وهنائها بخلوها من شؤون الدنيا إلىٰ حال مضطربة وخوف وتوجس من قومها وأهلها، وترقب لما تؤول إليه الأمور. وبدت عليها مخايل الحمل فضاقت ذرعًا، وتباعدت عن الناس واعتزلتهم، قال تعالىٰ: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾[مريم:٢٢]. أيْ مكانًا بعيداً حياء وفراراً علىٰ وجهها[١]. قال ابن إسحاق: (فما دخل علىٰ أهل بيتٍ ما دخل علىٰ آل زكريا، وشاع الحديث في بني إسرائيل، فقالوا: إنما صاحبها يوسف[٢]. ولم يكن معها في الكنيسة غيره، وتوارت من الناس)[٣]. فخرجت من بيت المقدس هربًا من كلام الناس وخشية علىٰ نفسها وولدها، إلىٰ قرية تبعد عن المدينة بضعة أميال، وهي بيت لحم، علىٰ المشهور من أقوال أهل العلم[٤].

---

(١) المحرر الوجيز: ٦/ ٤٨٥.

(٢) هو يوسف النجار، الذي كان يخدم معها في المسجد.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢١٨.

فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلىٰ جذع نخلة، فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تُذكر[1]. قال تعالىٰ: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم:٢٣]. فولدت عيسىٰ، ثم أظهر الله علىٰ يديه صدقها وعفتها وطهارتها، وبعثه الله نبياً إلىٰ بني إسرائيل.

وفي مجيء الفاء في موضعها من قول الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:٩١] إشارة إلىٰ حسن الجزاء علىٰ عفة المرأة وصيانة نفسها عن الرذيلة، قال السعدي: (فأعاضها الله بعفتها ولداً من آيات الله ورسولاً من رسله)[2]. فهو من باب وقوع الجملة الثانية مترتبة علىٰ وقوع الجملة الأولىٰ، وكذلك الله سبحانه يشكر من أحسنَت وهو الشكور الحليم، فإنَّ عفاف المرأة وصيانتها لنفسها عن الرذيلة مع القدرة علىٰ مواقعة الفاحشة وسلوك الطرق المفضية إليها يدل علىٰ صحة القلب ويقظته وزيادة الإيمان وازدهاره، وإنَّ العفة مِعْلَم إيماني لما يتضمن من امتثال أمر الله في السر والعلن

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٩٩٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٩٩٣.

والاستسلام لشرعه الناهي عن الفواحش وعن بذل الجسد والحديث والنظر لمن لا يحل.

ومعالم العفة التي كانت عليها مريم الصدِّيقة -كما أخبرنا الله في كتابه- تتمثل في الآتي:

أولاً: إحصان الفرج، وهو حفظه عن الحرام وعما يسوء؛ فكيف وقد اجتمعت لديها بعض دواعي الوقوع في الفاحشة ثم هي تعتصم بالله وتستعيذ به منها ومن أسبابها! قال السعدي في حكاية دخول جبريل علىٰ مريم: (وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها بسوء أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما يكون من العفة والبعد عن الشر وأسبابه. وهذه العفة - خصوصاً مع اجتماع الدواعي وعدم المانع - من أفضل الأعمال، ولذلك أثنىٰ الله عليها)[1]. لا شك أنَّ ذلك من أعلىٰ مقامات العفة، وهو يشبه مقام يوسف عليه السلام حين استعاذ بالله في الموقف الذي تيسرت له فيه كل سبل الفاحشة.

ثانياً: الحياء من الناس والخوف من تدنيس سمعتها. قال السدي: (قالت، وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس: يا ليتني مت

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٩٩٣.

قبل هذا الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود بغير بعل)[1].
ووصل بها الحال أنْ تمنت الموت وأنها لم تُعرف من قبل لكي تنسىٰ إلىٰ الأبد، فإنَّ المرأة الحرة ذات الشرف والدين تخشىٰ علىٰ سمعتها كما تخشىٰ علىٰ جسدها، وتحافظ علىٰ نُبل اسمها كما تحافظ علىٰ عفتها، والمرأة الحرة ذات الشرف والدين تحافظ علىٰ اسم والديها وإخوتها وذويها؛ فإنه يلحقهم ما يلحقها من الذم والسوء، ألا ترىٰ أنَّ بني إسرائيل حين كلموا مريم قالوا: ﴿يَٰمَرۡيَمُ لَقَدۡ جِئۡتِ شَيۡـٔٗا فَرِيّٗا ٢٧ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[مريم:٢٧-٢٨]. وقد كانت مريم عليها السلام علىٰ أشرف وأعز ما تكون امرأة، فأثرت في نفسها مقالة الناس وخشيت علىٰ نفسها من تأجيج القول، قال السعدي: (فلما آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها؛ تمنت أنها ماتت قبل هذا الحادث)[2]. وذلك قولها: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾[مريم:٢٣].

قال ابن عطية: (وتمنت مريم الموت من جهة الدِّين، إذْ خافت أنْ يُظَن بها الشر في دينها، وتُعيَّر فيفتنها ذلك، وهذا مباح، وعلىٰ هذا الحد تمناه عمر بن الخطاب وجماعة من الصالحين. ونهْيُ النبي ﷺ عن

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٢١٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ٩٩٤.

تمني الموت إنما هو لضُرٍ نزل بالبدن، وقد أباحه ﷺ في قوله: «يأتي علىٰ الناس زمان؛ يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه»[1]. لأنه زمن فتن يذهب بالدين)[2].

ابتلاء المؤمنات

طريق الاستقامة محفوف بالمكاره، وطريق العفة محفوف بالفتن والابتلاءات، والمرأة التي اختارت شرفها وعفافها واستقامت علىٰ دين ربها وأمره لا بد لها من الابتلاء، ولو سلمت منه امرأة لسلمت مريم بنت عمران التي ربَّاها ربها وأنبتها نباتًا حسنًا، ولكن الابتلاء ضرورة في الارتقاء بالمؤمنين، الارتقاء في الدرجات العليا، والارتقاء فوق النفس وشهواتها والشيطان وحبائله والدنيا وزخرفها، والارتقاء في مقاييس الناس وأحكامهم وتقييمهم.

والمؤمنة اليوم تُمتحن امتحانًا عظيمًا، في شرفها ودينها ومروءتها، قد أُشرعت لها أبواب الفتنة وزُينت لها سبل الفاحشة ومقدماتها، وأُخضعت لغزو ثقافي ينفرها من الطهر والعفاف. غزو يزين لها التبرج والسفور، ويحسِّن في نفسها الاختلاط بالرجال والحديث معهم، ويجعل ذلك تحضراً وتقدمًا. غزو ينفِّر من الحجاب والعفاف والقرار، ويصور ذلك بالتخلف والرجعية وانعدام الجدوىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري، حـ٧١١٧.

(٢) المحرر الوجيز: ٦/ ٤٨٦.

والمؤمنة اليوم تبتلىٰ ابتلاء شديداً، في دينها وعقيدتها وتصوراتها الشرعية، وتساق إلىٰ الفوضىٰ والانفلات الأخلاقي باسم الحرية والكرامة الشخصية، وتدعىٰ إلىٰ منافسة الزوج ونبذ القوامة، ويصوَّر لها النجاح في الحياة الزوجية بمظاهرَ وأنماطٍ مختلقة خاطئة؛ لتترك بيتها وتنشز علىٰ زوجها.

والمؤمنة اليوم تبتلىٰ ابتلاء شديداً، في فطرتها وإنسانيتها، فتزيَّن لها الدنيا وزخارفها، وتمكَّن من الكسب المالي الذي يبعدها عن أداء واجباتها الشرعية، بل يجعلها أسيرة لارتكاب المحظورات والمحرمات؛ ولو كانت صغائر، وصُغرت في عينيها الاستقامة والاعتناء بالفرائض وحقوق الله تعالىٰ.

واليوم تظهر المرأة المحادة لله في مختلف الأذرع العالمية للعولمة بوصفها نموذج النجاح والتقدم، وتُنشر حياتها الخاصة بوصفها الحياة السعيدة التي تأملها كل أنثىٰ، بينما هي لا تقيم شرع الله في نفسها، ولا ترفع بدين الله رأسـًا.

وأمام هذا الامتحان الكبير - الذي ربما لم يسبق إلىٰ مثله في التاريخ - تقف المؤمنة في هذا العصر شامخة صامدة صابرة، تُقْبِل علىٰ محرابها، وتطيل صلاتها وركوعها وسجودها، بخشوع وتضرُّع وإقبال، ثم هي تنأىٰ عن سلوك سبيل الفاحشة، ليس ذلك فحسب؛ بل تنأىٰ عن كل سبيل ينتقص من شرفها وعفتها؛ ولو كان حقيراً أو صغيراً،

ثم هي تقطع كل الحبال الموصلة إلىٰ خدش حيائها واستقامتها، وتكون علىٰ حذر من التماهي مع وسائل الإعلام والاتصال، لتلحق بركب الصديقين والصديقات.

وفي هذا السياق- أعني تعامل المرأة مع وسائل الإعلام والاتصال - فإنَّ علىٰ المؤمنة اليوم واجبًا غفلت عنه بعض بنات المسلمين، وهو أنْ تعرف الحد الشرعي في التعامل مع هذه الوسائل والشبكات، وأنْ تتقي الله فيها، وذلك بأنْ:

أولاً: أنْ تعرف حكم الله في التعامل مع كل جزء منها، وأنْ تبني علىٰ هذه المعرفة حدود العمل والتعامل.

ثانيًا: أنْ تحدد طريقة مشاركتها بحيث تراعي حق الله فيها وحق زوجها ووالديها وذويها.

ثالثًا: أنْ تقْصُر نفسها علىٰ ما حددته دون إخلال أو تساهل، وتترك ما سواه بحزم.

رابعًا: أنْ تقطع بالكلية ما كان ضررها عليها أكثر من نفعها.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث: (إنَّ الحلال بيِّن، وإنَّ الحرام بيِّن، وبينهما مشتبهاتٌ لا يعلمهنَّ كثير من الناس، فمن اتقىٰ الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي

يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أنْ يرتع فيه، ألا وإنَّ لكل ملك حمىٰ، ألا وإنَّ حمىٰ الله محارمه)[1].

ثم إنَّ علىٰ المؤمنة اليوم أنْ تكثر من العبادات، لا سيما الصلوات، وأنْ تحسن قيامها وركوعها وسجودها، فإنها ترفع ذكرها وتعلي شأنها في الملأ الأعلىٰ وتثبت الإيمان في قلبها، وأنْ تكثر من الدعاء فيها أنْ يجعلها الله من المحسنات القانتات، فإنه لا يستجلب التوفيق لذلك بشيء مثل الدعاء والاستعانة بالله.

(١) أخرجه البخاري حـ ٥٢، ومسلم حـ ١٥٩٩.

مربية أبطال

مكث بنو إسرائيل في مصر حقبة طويلة من الزمن، ربما تجاوزت أربعمائة سنة كما تورد ذلك كتبهم[1]، ويرجع مبتدأ وجودهم الحقيقي في مصر إلىٰ زمن يوسف عليه السلام، حيث وفد إليه في مصر أبوه يعقوب عليه السلام وأهل بيته وذريته قادمين من بوادي الشام، فأسكنهم يوسف عليه السلام أرضاً اختصها لهم ليعبدوا الله تعالىٰ فيها ويقيموا شعائر التوحيد بمنأىٰ عن القبط الوثنيين والذين يمثلون السكان الأصليين في مصر، ويتسيدهم الفراعنة.

وبعد موت يوسف عليه السلام وموت الملك الذي مكن الله به ليوسف وعشيرته؛ بدأت رحلة الاستعباد والاستضعاف في بني إسرائيل، فلقد تسلط القبطيون علىٰ بني إسرائيل واحتقروهم وأهانوهم وهضموا حقهم جماعة وفرادىٰ، حتىٰ كان ذروة هذا الأمر في عهد الفرعون الذي قص الله علينا من أخباره الشيء الكثير، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾[البقرة:٤٩]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ

(١) أشار القرطبي إلىٰ هذه المدة في تفسيره: ١٣/ ٩٤. والنصارىٰ وفقاً لكتبهم يخالفون اليهود فيجعلون المدة مائتي سنة ونيف. والله أعلم بالصواب؛ والمقصود أنَّ بني إسرائيل مكثوا أجيالاً يتناسلون تحت سياط العبودية والاستضعاف.

وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[القصص:٤]. قال ابن إسحاق: (كان فرعون يعذب بني إسرائيل فيجعلهم خدماً وخولاً، وصنَّفهم في أعماله، فصنفٌ يبنون، وصنفٌ يحرثون، وصنفٌ يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزية)[١]. وقال ابن كثير: (وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم. هذا وقد سُلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد؛ يستعملهم في أخس الأعمال، ويكدُّهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته، ويقتل مع هذا أبناءهم، ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أنْ يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أنْ يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته علىٰ يديه)[٢]. وقد صنع فرعون احترازاً من ظهور الغلام الذي يقيض مملكته تنظيماً إدارياً لمراقبة مجتمع بني إسرائيل واتخاذ الإجراءات اللازمة لذلك، فجعل لكل عشرة من نساء بني إسرائيل رجلاً من الأقباط يرصدهن، فإذا حملت المرأة وولدت ذكراً قتله هذا الرجل القبطي، وإنْ كان المولود أنثىٰ أبقاها للخدمة والسخرة وإبقاء العرق الإسرائيلي المستضعف[٣].

---

(١) جامع البيان: ٢/ ٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٥.

(٣) انظر: جامع البيان: ٢/ ٤٣.

وهكذا صار بنو إسرائيل يعيشون في مصر تحت وطأة الرقابة الاجتماعية الصارمة، التي تنظم نسلهم وَفْقَ رغبة الفرعون، كما صار معاشهم مرتبطًا بوظائفهم التي يعود نفعها أولاً علىٰ فرعون وقومه وجنوده.

وحين أذِن الله بخروج الغلام الذي سيصبح نبيًا مرسلاً، وزعيمًا قويًا، يعيد الله به شموخ التوحيد ويهدم به رؤوس الوثنية، وينجي الله به بني إسرائيل من طغيان فرعون وقومه ليستعيدوا وجودهم وموقعهم الحقيقي في الحياة، حين ذلك قيض الله لهذا الغلام أُمَّين؛ أُمًا تلده وترضعه وتعطف عليه، وأُمًا تربيه وتسيِّده وتنزع عنه دثار العبودية والضعف الذي عم بني إسرائيل حينها.

فوُلد موسىٰ عليه السلام.

وُلد رغم الجهود الحثيثة والنظام الإداري المكتمل لأجل منع أي (موسىٰ) يمكن أنْ يولد، ذلك أنَّ الله تعالىٰ أقوىٰ من فرعون، وأقدر من سلطانه وجنوده، ولك أنْ ترىٰ قوة الله في جعل هذا الغلام الذي يخافه فرعون يتربىٰ في قصره، ويلعب بين يديه، ويجلس في حجره، ذلكم هو القدَر النافذ. قال تعالىٰ: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص:٥-٦].

تقنيات القهر والاستضعاف

المجتمع المستضعف لا يخرج الأقوياء، والأُمة المستعبدة لا تنجب القادة، والبيئات المقهورة أنىٰ لها أنْ تصنع لنفسها نصراً أو ترفع بدينها رأسـًا، وعلىٰ هذا النحو فُعل ببني إسرائيل في مصر، فقد نهشت كيانَهم آفةُ الاستعباد حتىٰ لم يعد يرجىٰ منهم مقاومة ولا قيام، ولم يعد يرجىٰ منهم شموخ ولا إباء، والاستعباد يصيب كيان الإنسان في أخلاقه وقيمه ومروءاته فيسحقها، ويلغي في الإنسان إنسانيته واعتزازه ووجوده، وقد عاب موسىٰ عليه السلام علىٰ فرعون هذا الأمر كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[الشعراء:٢٢]. أيْ جعلتهم عبيداً وخدمـًا، تصرفهم في أعمالك ومشاق رعيتك، أَفَيَفِي إحسانك إلىٰ رجل واحد منهم بما أسأت إلىٰ مجموعهم[1]؟ ولذلك وجبت التربية علىٰ معاني الإباء والشموخ والأنفة ومقاومة الاستعباد وتغذية روح الاستعلاء الإيماني، لينشأ الطفل من صغره علىٰ رفض أي عبودية إلا عبوديته لله، ولينشأ علىٰ تمسكه بحريته لأنَّ فيها إنسانيته وكيانه وأخلاقه، وبها يكتمل توحيده لله. وقد حذَّر الله تعالىٰ المؤمنين من الوقوع في فخ الانهزام النفسي عقب هزيمتهم في أرض المعركة في أُحُد، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥/ ٦٢٠.

وابن خلدون يقرر في مقدمته ذلك القانون الرباني بعد استقراء تاريخي؛ فيقول: (مَنْ كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم؛ سطا به القهرُ، وضيَّقَ عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلىٰ الكسل، وحُمِل علىٰ الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلَّمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادةً وخلقًا، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدُّن وهي الحميَّة والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً علىٰ غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدىٰ إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين. وهكذا وقع لكل أُمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف)[1].

ووَفْقًا لتقرير ابن خلدون سأذكر هنا عدداً من التقنيات المؤدية إلىٰ بناء الشخصية الضعيفة والمسلوبة الإرادة:

- تقنية الاقتران الشرطي بين العقاب القاسي والسلوك غير المرغوب الصادر عن الأولاد. وذلك يكون بتكرار العقوبة القاسية مع كل سلوك غير مرغوب ولو كان دون مستوىٰ العقوبة، حتىٰ يتكون لدىٰ الطفل رادع ذاتي يضبط إيقاع سلوكه وفق ما يرغبه الآباء والأمهات؛ لما يكلفه هذا السلوك من نتائج وخيمة عليه.

(١) المقدمة، ص٤٦٣.

- تقنية الرقابة الصارمة، فيتجسس الآباء والأمهات علىٰ كل كبير وصغير وجليل وحقير، وربما أوعزوا إلىٰ أهل البيت بالتجسس بعضهم علىٰ بعض، فينتهج البيت - الذي هو مصدر العطف والحنان - طريق الجاسوسية الحتمية، فعندئذٍ تبدأ خلايا النفاق والاحتيال والكذب في النمو والانشطار؛ إذ لا يستطيع الأولاد أنْ يأمنوا أحداً في البيت! فإذا فُقد الأمان طفت الأخلاق الرديئة علىٰ السطح.

- تقنية التبليد، وهي تشتيت عقل الولد ومزاجه في فهم حقيقة المحذورات والممنوعات المسببة للعقوبات القاسية فتتبلد دوافعه وتكسل نوازعه، فتجعله ميالاً إلىٰ الكسل والدعة والخمول خوفًا من الإقدام علىٰ شيء ربما يغضب والديه فيعاقبانه، وخوفًا من النقد المترصد له من سلوك ربما لا يعجب والديه؛ فتموت عندئذٍ طاقاته. وهذا أحد الأسباب الباعثة علىٰ إقبال الأولاد علىٰ اللهو والتراخي والبعد كل البعد عن التفكير فيما ينفعهم أو يقدم لهم ولأهليهم وأمتهم خيراً؛ فيصبحوا عالة علىٰ غيرهم عند كبرهم، وغير قادرين علىٰ اقتحام المخاطر وتحمل المسؤوليات.

وهذه التقنيات السيئة تلغي قيمة الفضائل والمروءات، لأنها تنقل المعيار الذي تقاس به هذه الفضائل والمروءات من قيمتها الذاتية

التي أرادها الله لها إلىٰ المظاهر التي يرغبها الوالدان أو لا يرغبانها، فتُفرغ شخصيات الأولاد من الدوافع النبيلة الحاثة علىٰ تلك الفضائل والمروءات.

بداية التمكين

ولقد نشأ الأطفال في بني إسرائيل علىٰ نحو من معاني العبودية التي وصفها ابن خلدون في مقدمته حتىٰ لم يعودوا صالحين لإقامة الدين وبعث الرسالة وقيادة المجتمع، فضلاً عن فتح بيت المقدس، فكانت الحاجة إلىٰ رجل يتربىٰ علىٰ غير تلك المعاني الاستعبادية، ليكون قادراً علىٰ حمل الرسالة وإقامة الدين وقيادة المجتمع المؤمن وإعادة صياغته وتربيته من جديد، فكان لا بد من مربية لا تنتمي إلىٰ مجتمع الضعف والعبودية، ولا تعاشر الخوافين والمقهورين لتربي واحداً منهم فهم أهل الدين والرسالة حينها، وكانت المعادلة صعبة في الحسابات البشرية، لأنَّ سلطة فرعون تفرض رقابة وإجراءات قاسية في تنشئة الأولاد؛ فإما أنْ يموتوا فوراً أو يكبروا تحت السخرة والخدمة والاستعباد، فقضىٰ الله تعالىٰ أنْ تكون مربية الطفل الذي هو من بني إسرائيل امرأة تسكن في بيت فرعون، بل هي امرأة فرعون ذاته! قال تعالىٰ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ

وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:٧-٩]. قال السدي: (اتخذه فرعون ولداً، ودُعي علىٰ أنه ابن فرعون)[1].

وكانت آسية بنت مزاحم (امرأة فرعون) هي التي استبشرت بالتقاط موسىٰ الوليد، وأحبته حبّاً شديداً، واستوهبته من فرعون أنْ يذبحه، وطلبت منه تبنِّيه وتربيته، فكانت تكسوه أحسن الملابس وتطعمه أحسن الطعام وتحيطه بالحماية من كل ما يمكن أنْ يسوءه، وكانت تلاعبه وسط قصر الطاغية وتدفعه إليه أحياناً فيعبث هذا الوليد الإسرائيلي الصغير بذلك الفرعون المعظم، وربما نتف لحيته أو قبضها بيده ولربما قرع رأسه بالقضيب، فيشتد غضب فرعون عليه، فتتفداه مربيته آسية رضي الله عنها وأرضاها. قال البغوي: (وذلك أنَّ موسىٰ كان في حجر فرعون ذات يوم في صغره، فلطم فرعون لطمة، وأخذ بلحيته، فقال فرعون لآسية امرأته: «إنَّ هذا عدوي». وأراد أنْ يقتله، فقالت آسية: «إنه صبي لا يعقل ولا يميز». وفي رواية: أنَّ أم موسىٰ لما فطمته ردته، فنشأ موسىٰ في حجر فرعون وامرأته آسية يربيانه، واتخذاه ولداً، فبينما هو يلعب يوماً بين يدي فرعون؛ وبيده قضيب يلعب به، إذْ رفع القضيب فضرب به رأس فرعون! فغضب

(١) جامع البيان: ١٩/ ٥٢٤.

فرعون وتطير بضربه، حتىٰ هم بقتله، فقالت آسية: «أيها الملك إنه صغير لا يعقل فجربه إنْ شئت». وجاءت بِطَستين: في أحدهما الجمر، وفي الآخر الجواهر، فوضعتهما بين يدي موسىٰ، فأراد أنْ يأخذ الجواهر، فأخذ جبريل بيد موسىٰ فوضعها علىٰ النار، فأخذ جمرة فوضعها في فمه، فاحترق لسانه وصارت عليه عقدة)[1].

فإذا كان هذا بعض فضل آسية بنت مزاحم، فما فضل أم موسىٰ التي أنجبته وأرضعته؟

يكفيها أنها أرضعته حتىٰ أتم الرضاعة، وغذته بحليبها وضمته إلىٰ صدرها، واستقىٰ منها أصول الديانة. وهنا سؤال مهم للغاية: هل إرضاع الأم لوليدها حاجة غذائية أم ضرورة تربوية؟

هو حاجة غذائية وضرورة تربوية، وإنَّ مما يلفت الانتباه عناية القرآن الكريم بمسألة الرضاع، حتىٰ إنه عالج مسألة الرضاع في حال الطلاق، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟

(١) معالم التنزيل: ٣/ ١١٩.

ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة:٢٣٣]. ونبَّه في أكثر من موضع أنه يجب إحسان الولد إلىٰ الأم كونها حملته وأرضعته مدة من الزمن، فقال تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف:١٥]. وأباح الله للمرضع الإفطار إذا خشيت علىٰ ولدها أو نفسها، وقدَّم مصلحة الولد علىٰ فريضة الصيام، وقد ثبتت الرخصة بذلك عن النبي ﷺ. وحث القرآن علىٰ الدعاء للوالدين فقال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[الإسراء:٢٤].

فنفهم من ذلك أنَّ الرضاع تربية وأنَّ الاعتناء بجسد الولد جزء من التربية المطلوبة، وأنَّ من أهم الوظائف التربوية الواجبة علىٰ الأم وظيفة الرضاع، وبه وبنحوه يكافئها الله تعالىٰ بوجوب البر علىٰ الأولاد في الدنيا إضافة إلىٰ الأجر العظيم المترتب علىٰ ذلك. فالرضاع من ثدي الأم يشتمل علىٰ تربية الجسد بالغذاء النافع والصحي، فيسلم البدن من بنائه بالأغذية الفاسدة أو المشبوهة، وتكتسب بنية الولد قوة ومتانة.

والعقل السليم في الجسم السليم، فكما أنَّ الجسد يصح بالرضاع الطبيعي من ثدي الأم فكذلك العقل يصح وينمو تبعًا لذلك، فيكتسب الولد ذكاء ونبوغًا وإدراكًا.

ويشتمل الرضاع أيضـًا علىٰ الالتصاق البدني، الذي يكتسب منه الولد الشعور بالأمان والحب والعطف والقبول والرحمة والدفء.

ويشتمل الرضاع أيضـًا علىٰ تعليم التواصل واللغة، فتنمو لدىٰ الولد مهارات عالية فيهما.

ويشتمل الرضاع أيضـًا علىٰ الانتماء، فتتولد لدىٰ الولد مشاعر الانتماء إلىٰ الوالدين بسبب قرب الولد منهما، واقتصاره علىٰ رؤيتهما، والتصاقه الشديد بأمه.

ويشتمل الرضاع أيضـًا علىٰ التربية علىٰ ضبط النفس، إذ يبدأ تعويد الولد علىٰ الفطام في مرحلة متأخرة، ليكتسب واحدة من أهم مهارات الحياة.

كما يتحصل من الرضاع عدد من الفوائد الأخرىٰ، مثل تعلُّق قلب الأم بالولد، الأمر الذي يجعلها تهتم بتنشئته والحفاظ عليه وإحسان تربيته، ويكون سببـًا في تقوية بناء البيت الزوجي، وهو مقترن بقرار الأم في بيتها.

فإذا كان الرضاع بهذا الحجم من التأثير فلا ينبغي أنْ ترضىٰ الأم بأي نوع من البدائل الرضاعية إلا ما اقتضته الضرورة الحقيقية كالمرض.

وتعد الأم التي تتساهل في الرضاع مفرِّطة في حق ولدها تاركة للواجب، ويجب عليها التيقظ لهذا الأمر وتصحيح حالها، إنها ظالمة لولدها -ولو زعمت حبه- ومغتصبة لحقه في ثديها في حين عجزه.

الرضاع ضرورة تربوية ووظيفة أولية للأم وموطن عظيم من مواطن الأجر، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[المائدة:٣٢].

ذلك، وكما نشأ موسىٰ في ظل هذا العطف والحنان فقد تنشأ علىٰ معالم الرجولة والقوة النفسية والجسدية، وتربىٰ علىٰ الإقدام والشجاعة وطلب الأهوال علىٰ يد مربيته، وهذا ما لم يألفه أطفال بني إسرائيل منذ قرون، وعزَّ موسىٰ في بني إسرائيل قبل أنْ يوحىٰ إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[القصص:١٤]. والأشد: شدة البدن واستحكام أسره وقوته. والاستواء: تكامل عقله وحزمه. والحكم: الحكمة. والعلم: المعرفة بشرع إبراهيم عليه السلام[1]. وما كان له أنْ يكون كذلك لولا تربيته تربية الأسياد والأحرار والقادة؛ فلله امرأة فرعون! ما أعظم فضلها علىٰ أهل الإيمان إذ ذاك. ويلاحظ قارئ الآية الكريمة أنَّ الحكمة والعلم والديانة اقترنت باكتمال البناء النفسي والجسدي والعقلي، ولذلك سيفوت علىٰ بني إسرائيل - وهم أهل الدين في

(١) المحرر الوجيز: ٧/ ٤٨٤.

زمانهم – بعض من الحكمة والعلم بقدر ما يفوتهم من البناء النفسي والعقلي والجسدي.

وعزَّ قوم موسىٰ به قبل النبوة، وهو لم يزل شاباً يافعاً، فاختلفت المعادلة الاجتماعية لكل من الأقباط وبني إسرائيل بعد أنْ كبر موسىٰ وصار مقدَّماً معروفاً، قال ابن عباس: (لما بلغ موسىٰ أشدَّه لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلىٰ أحد من بني إسرائيل بظلم، حتىٰ امتنعوا كل الامتناع، وكان بنو إسرائيل قد عزوا بمكان موسىٰ، لأنهم كانوا يعلمون أنه منهم)[1].

وهذه نتيجة التنشئة الصالحة والتربية الناجحة، وهذا هو الدور الفاضل الذي تستطيعه كثير من الأمهات والمربيات، فكما اقتبس موسىٰ من أمه بالولادة الحنان والرحمة والدين؛ فكذلك اقتبس من أمه بالتبني والتربية العزم والحزم والقوة والعزة والإباء، وعرف القيادة والزعامة، وتخلق بالشرف والنبل.

وإنَّ في هذا لدرساً بليغاً للأمهات والمربيات، بأنْ يلقنَّ أولادهنَّ في طفولتهم أناشيد البطولة وأهازيج القوة، وأنْ يرضعنهم معاني الشجاعة والإباء ورفض الضيم، وأنْ يروين لهم قصص الأبطال والفاتحين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأنْ ينشئنهم علىٰ الاقتداء بخالد بن

---

(١) معالم التنزيل: ٣/ ٤٣٠.

الوليد وعمرو بن العاص وسعد بن أبي وقاص، وأنْ يقصصن عليهم غزوات الرسول ﷺ وبطولات أصحابه الكبار والصغار.

وإنَّ علىٰ الأمهات والمربيات البعد كل البعد عن تخويف الأطفال وغرس الرهبة من البشر والحياة في قلوبهم، وذلك بأنْ يجنبنهم القسوة في التعامل، والعقوبات المؤلمة للجسد، وأنْ يجنبنهم الإسكات أو الكف الدائم عن الحركة من خلال التخويف أو الضرب، وأنْ يكنَّ علىٰ بينة من الأثر السيء لتقنيات القهر والاستضعاف التي سبقت الإشارة إليها.

كما أنَّ علىٰ الأمهات والمربيات أنْ يكنَّ سداً منيعاً أمام تأنيث الولدان وتمييع أخلاقهم، من خلال لغتهم وملابسهم وتقليد الأعاجم، بل عليهنَّ تعليمهم معاني الرجولة في الكلام والمشي والملبس والتعامل.

وقبل ذلك عليهن أنْ يعلمنهم توحيد الله والإيمان به والتعلق به وأنَّ دينه وشريعته معيار الصواب والخطأ، ومعيار الأمن والخوف، ومعيار الحب والكراهية.

والحضارة الغربية التي تغلغلت اليوم في معاش الناس وأساليب حياتهم استطاعت أنْ تصنع لهم أنماطاً حياتية يسيرون وفقها، وأصبح كثير من الناس يعيش جزءاً من حياته بوصفه آلة صماء مسيَّرة، بلا اختيار حقيقي ولا إرادة حقيقية، وإنما مكائن تمشي علىٰ الأرض،

بتأثير النُّظُم الوظيفية والتسويقية والإدارية، واستطاعت أنْ تنزع من الناس بشريتهم الآدمية أو جزءاً منها، وحولت كثيراً منهم إلىٰ كيانات رقيقة ومستعبدة لرأس المال ومالكه والأنظمة التي تعمل له، وإنَّ الأمة المسلمة اليوم لهي أحوج ما تكون إلىٰ أمهات يلدن الأشداء ويرضعن الأقوياء ويصنعن الرجال وينجبن الأبطال، إذْ لم تعد الأمة بحاجة إلىٰ المزيد من البطالين والكسالىٰ والمهزومين والمأسورين.

وكما أنَّ الله كتب أنْ تكون بداية بعث بني إسرائيل في مصر وفتحهم لبيت المقدس علىٰ يد حرة كريمة؛ فهو كذلك القادر علىٰ أنْ يكون البعث الجديد لهذه الأمة وفتحها القادم علىٰ يد مؤمنات حرات كريمات، يملأن بيوت المسلمين بأولاد يحملون قوة موسىٰ وعزيمة موسىٰ وإيمان موسىٰ. إضافة إلىٰ ما يحملنه من الغريزة الفطرية والأمومة الحانية، التي تُشبع حاجات الطفل النفسية وتعين علىٰ اكتمال نموه من خلال الحب والحنان والعطف والرحمة، وقد هيأ الله تعالىٰ لموسىٰ هذه المشاعر وتلك الأمومة بردِّه إلىٰ أمه.

وإنَّ اللاتي أنجبن خالد بن الوليد وعَمْرَو بن العاص وعُمَر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من الأبطال هنَّ اللاتي قال النبي ﷺ عنهن وعن أمثالهن: (خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش؛ أحناه علىٰ ولد في صغره، وأرعاه علىٰ زوج في ذات يده)[1].

(١) أخرجه البخاري، حـ ٥٣٥٧.

آسية... الثبات وقوة الوفاء

قص الله تعالىٰ علينا في كتابه عن آسية بنت مزاحم امرأة فرعون رضي الله عنها في مشهدين من مشاهد الزوجية:

أما المشهد الأول فهو فرحها بالتقاط موسىٰ الوليد واستوهابها إيَّاه من فرعون وتبنِّيها إيَّاه وتربيتها إياه في قصر فرعون وأبهته، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[القصص:٩] في مشهد من مشاهد الأمومة البالغة الجمال التي فطر الله عليها النساء، فصرن بهذه الغريزة منبعـًا للحنان ووجهـًا لجمال الحياة.

وأما المشهد الثاني فهو ثباتها علىٰ الإيمان مع كفر زوجها وسعيه الدؤوب في الاعتداء علىٰ أهل الإيمان وحربهم وصده الناس عن الإيمان وحمله إيَّاهم علىٰ تأليهه وعبوديته، قال تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١].

وربما ورد سؤال عن موسىٰ عليه السلام: أين هو من تعذيب مربيته؟ وموتها بين يدي فرعون؟ ألا نصرها وأخرجها مما كانت فيه؟ ويمكن القول بأنَّ موسىٰ عليه السلام لا يفعل شيئـًا بعد النبوة إلا بأمر

الله تعالىٰ، وليس من ذلك نصرة مَن آمن مِن آل فرعون، وربما وكلهم الله إلىٰ إيمانهم وصبرهم رفعة لهم، قال ابن عطية: (وكان موسىٰ مبعوثـًا إلىٰ فرعون في أمرين: أحدهما أنْ يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذل العبودية والغلبة. والثاني أنْ يؤمن ويهتدي، وأُمر بمكافحته ومقاومته في الأول، ولم يؤمر بذلك في الثاني علىٰ ما بلغ من أمره، وبُعث بالعبادات والشرع إلىٰ بني إسرائيل فقط، هذا قول بعض العلماء)[1].

وكما أشرنا إلىٰ بعض العبر المستفادة من المشهد الأول فيما سبق، فيحسن أنْ نبلغ تمامها في هذه الأسطر، وبالله التوفيق.

استقامة رغم الفتن

قال قتادة: (كان فرعون أعتىٰ أهل الأرض وأبعده، فوالله ما ضر امرأَته كفرُ زوجها حين أطاعت ربها؛ ليعلموا أنَّ الله تعالىٰ حكم عدل لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه)[2]. أيْ أنَّ كل امرأة هي المسؤولة الأولىٰ عن ديانتها واستقامتها وثباتها علىٰ ذلك؛ مهما استحكمت حولها الظروف الصعبة، ولقد كان فرعون من القوة في دفع الناس إلىٰ الكفر بالله تعالىٰ بمكان؛ فكيف بقوَّته علىٰ أهل بيته ومن هم تحت يده! لكن الإيمان عقْد بين العبد وربه، عقْد بين الإنسان علىٰ هذه الأرض وبين

---

(١) المحرر الوجيز: ٤/ ٢٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٣٢٦.

الله في السماء، عقد ليس فيه وسطاء ولا شركاء يؤخذ برأيهم في هذا العقد أو يُتطلب رضاهم فيه.

إنَّ للإيمان شأن أعظم من العلاقات والروابط، فلذلك اعتنت آسية بنت مزاحم رضي الله عنها بعقدها مع الله، وأخلصت له العبودية والطاعة، وقدمتها علىٰ علاقتها بزوجها الكافر، وهي مدركة أنَّ إيمان القلب لا يستطيع أنْ ينتزعه أحد، كائنًا من كان، إلا الله تعالىٰ. وما قيمة هذه القصور المنيفة الملأىٰ بنوافذ الشر وأوعية الشهوات إذا استقر الإيمان في القلب؟ ما قيمة الأسقف المرتفعة والجدران المزخرفة والملابس المطرزة والعقود المرصعة أمام سجدة لله وقيامٍ بين يديه؟ وأين تقع أصوات الغناء والمعازف المطربة من التلذذ بمناجاة الله ودعائه بأسمائه وصفاته؟ وهل تعقد المرأة العاقلة مقارنة بين هذه وتلك، بين السماء والقاع؟ فذلكم هو الإيمان بالله إذا استقر في القلب وانعقدت عليه أوردته وشرايينه، فإنه لا يتزحزح عن قلب المرأة ولو كان زوجها منحرفًا، بل ولو كان زوجها هو فرعون نفسه! لقد كانت آسية علىٰ هذه الدرجة من الثبات.

لكن بعض الروايات تفيد أنها أخفت الإيمان بقلبها ولم تظهره حتىٰ كُشف أمرها، كما في رواية أبي العالية التي جاء فيها: (فازدادت إيمانًا ويقينًا وتصديقًا، فأطلع الله فرعون علىٰ إيمانها، فقال للملأ: ما تعلمون من آسية بنت مزاحم؟ فأثنوا عليها، فقال لهم: إنها تعبد غيري.

فقالوا له: اقتلها فأوتِدْ لها أوتاداً فشد يديها ورجليها، فدعت آسية ربها فقالت: رب ابن لي عندك بيتًا في الجنة)[1]. قال أبو هريرة ﷺ: (فكشَف لها عن بيتها في الجنة)[2]. وقال سلمان الفارسي: (كانت امرأة فرعون تعذب بالشمس، فإذا انصرفوا عنها أظلتها الملائكة)[3].

وإخفاؤها يأتي في السياق الطبيعي لامرأة تخشىٰ علىٰ نفسها وإيمانها من بطش زوج جبار، ويأتي في السياق الطبيعي لامرأة لا زالت ترىٰ للزوجية حرمتها وللبيت احترامه، فهي تصبر علىٰ البقاء في بيت الزوجية وتفي بمتطلباته الواجبة وتخفي إيمانها، ويسميها الله تعالىٰ في القرآن باسم الزوجية، ولا تزرع الألغام في بيت زوجها لتنتقم منه لأنه يخالفها في اعتقادها؛ فكيف بما هو دون ذلك، فكون بيت الزوجية مبدأً من المبادئ أهم من كونه جُدُراً وأعمدة وسُقفًا تُظل من الشمس وتدفع قسوة البرد وتستر من العري والانكشاف.

ولما ظهر أمرها وعمد فرعون إلىٰ تعذيبها وإلحاق الأذىٰ النفسي والجسدي بها دعت ربها أنْ ينجيَها من فتنته وعمله خوفًا علىٰ نفسها من الفتنة في الدين، فقالت: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فوصفها الله بالإيمان

(١) تفسير القرآن العظيم: ٧/ ٣٢٧.
(٢) موسوعة التفسير المأثور: ٢٢/ ٥١.
(٣) معالم التنزيل: ٤/ ٤٣٢.

والتضرع لربها، وسؤالها إيَّاه أجلَّ المطالب، وهو دخول الجنة ومجاورة الرب الكريم، ثم سؤالها إيَّاه أنْ ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنة كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن[1].

وقبض الله روحها بعد أنْ نالها من التعذيب ما نالها، وصارت مثلاً للمؤمنين في ثباتها علىٰ الإيمان في البيئات المنحرفة، ومثلاً للمؤمنات في المحافظة علىٰ بيت الزوجية بوصفه مبدأ إيمانيـًا وعلامة أخلاقية، ولذلك جاءت هذه الآية في سورة التحريم التي اعتنت بموقع المرأة من متطلبات الزوجية، وأشاد النبي ﷺ بإيمان آسية وعقلها حين قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإنَّ فضل عائشة علىٰ النساء كفضل الثريد علىٰ سائر الطعام)[2].

والحق أنَّ معادلة الحفاظ علىٰ بيت الزوجية الداعي إلىٰ المعصية مع الثبات علىٰ الاستقامة وعدم الطاعة في المعصية أمر صعب، وهذا جوهر الابتلاء والامتحان، لأنه يجب علىٰ الزوجة عدم الطاعة في معصية الله وتجنب مقارفة المنكرات التي يدعو إليها الزوج.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٤/ ١٨٥٥.
(٢) أخرجه البخاري، حـ ٣٤٣٥.

الرابطة الزوجية مبدأ

لم يرد ما يفيد طلب آسية الطلاق من فرعون، وغاية ما ذكر دعاؤها بأنْ ينجيَها الله منه ومن عمله، فقد فوضت أمرها إلىٰ الله تعالىٰ في أنْ يختار لها الخلاص من الزوج الكافر، ولم تلجأ إلىٰ خيار طلب الطلاق، بل إنَّ الآية الواردة بهذا الشأن نزلت ختام سورة التحريم التي فيها تأديب المؤمنات في حياتهن الزوجية، ذلك أنَّ بيت الزوجية له شأن عظيم، ليس في شريعتنا فقط، بل في الأمم التي قبلنا ممن اتصل بها شيء من أنوار النبوة فاستفادت منه في حياتها. ألا ترىٰ أنَّ الله تعالىٰ وصف عزيز مصر بسيادته علىٰ زوجه حين قال: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[يوسف:٢٥]. فقد كانت الرابطة الزوجية علىٰ قدر كبير عند العاقلات في تلك المجتمعات. يقول محمد رشيد رضا: (وكان النساء في مصر يلقِّبْن الزوج بالسيد، واستمر هذا إلىٰ زماننا)[١]. وهو أدب أثبته القرآن وتعلمْنه أمهات المؤمنين ونساء الصحابة الكريمات، ومن تبعهم من فضليات نساء المؤمنين؛ فعن امرأة سعيد بن المسيب قالت: (ما كنا نكلم أزواجنا إلا كما تكلموا أمراءكم: أصلحك الله، عافاك الله)[٢].

---

(١) تفسير المنار: ١٢/ ٢٣٦.

(٢) حلية الأولياء: ٥/ ١٩٨.

والمقصود أنَّ المؤمنة الفاضلة لا تبادر إلىٰ هدم بيت الزوجية فإنه من أقدس المبادئ في حياتها، انظر إلىٰ امرأة فرعون حين سألت ربها الجنة فقد سألت أنْ يكون لها بيت فيها، البيت الذي يمثل للمؤمنة شرفها وكرامتها وسلطانها ومأواها وسترها، ولم تطلب في الجنة شيئًا غير ذلك. ولا نقول هنا أنَّ علىٰ هذه المرأة أنْ تتماهىٰ مع كل زوج كافر أو ظالم، وإنما عليها أنْ تتلمس أحسن السبل في هدايته، فإذا عجزت عن ذلك فعليها أنْ تتلمس أحسن السبل في مفارقته، كما فعلت امرأة فرعون.

والمؤمنة لا تبادر إلىٰ الاختلاع من زوجها ومفارقته إلا في أضيق الظروف، لقول النبي ﷺ: (أيما امرأة سألت زوجها طلاقًا في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة)[1]. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (المنتزعات والمختلعات هن المنافقات)[2]. والمقصود اللاتي يطلبن الخلع والطلاق من أزواجهن بغير عذر[3]. وعن أبي أذينة الصدفي ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: (خير نسائكم الودود الولود المواتية المواسية؛ إذا اتقين الله، وشر نسائكم المتبرجات المتخيلات، وهن

---

(١) أخرجه أبو داود حـ ٢٢٢٦، والترمذي حـ ١١٨٧، وابن ماجه حـ ٢٠٥٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع حـ ٢٧٠٦.

(٢) أخرجه النسائي حـ ٣٤٦١ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة حـ ٦٣٢.

(٣) النهاية في غريب الحديث: ٢/ ٦٥.

المنافقات، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم)[1]. والغراب الأعصم هو أحمر المنقار والرجلين، كناية عن قلته.

إذن فآسية بنت مزاحم وهي تتلظىٰ بنار فرعون المتجبر عمدت إلىٰ أربع عبوديات:

١. عبودية الثبات علىٰ الإيمان في البيت الكافر والمعادي لأهل الإيمان.

٢. عبودية الحفاظ علىٰ بيت الزوجية.

٣. عبودية اللجوء إلىٰ الله بالدعاء بالنجاة من فرعون وعمله.

٤. عبودية التوكل وتفويض أمر الخلاص من فرعون إلىٰ الله، فهي لم تذكر في دعائها الوسيلة التي بها تنجو من فرعون، بل اطمأنت إلىٰ اختيار الله لها ما يشاء.

هذه العبوديات التي تسمو بها المرأة وترتقي بها في مدارج الكمالات، لا تلك التي تنادي بها الكاتبة الفرنسية مونيك فيتيغ «Monique Wittig» إذ تقول في سياق تحرير المرأة من الرجل: (لا يمكن تحقيقه إلا بتحطيم نظام الزوجية (ذكر/ أنثىٰ) بوصفه نظاماً اجتماعياً قائماً علىٰ اضطهاد الرجال للنساء، والذي أنتج الاعتقاد في الفرق بين الجنسين كتقنين لهذا الاضطهاد). ثم هي تقترح الشذوذ

(١) أخرجه البيهقي، حـ١٣٦٠٧ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة حـ١٨٤٩.

بديلاً مناسباً عن الزواج الفطري[1]، فتلتقط بعض المسلمات - بغفلة منهن - الشطر الأول من فكرة «ويتق Wittig» دون الشعور بأنها جسر محتوم للشطر الثاني منها. وهي وإنْ كانت تتحدث في سياق مغاير؛ إلا أنَّ من المسلِمات من تشربت هذه الفكرة بعد أنْ تم تلميعها وتحسينها في وسائل الإعلام والاتصال.

البراءة لا تمنع المروءات

ولقد أسلمت زينب بنت رسول الله ﷺ قبل الهجرة ولم يُسلم زوجها أبو العاص بن الربيع ﷺ إلا متأخراً، ولم ترغب زينب عنه بل اختارت أنْ تنتظر إسلامه، وظلت علىٰ نكاحها منه حتىٰ أسلم، قال ابن القيم: (وقد ردَّ النبي ﷺ ابنته زينب علىٰ أبي العاص بن الربيع، وهو إنما أسلم زمن الحديبية، وهي أسلمت من أول البعثة، فبين إسلامهما أكثر من ثماني عشرة سنة)، وقال: (ولا نعلم أحداً جدد للإسلام نكاحه البتة، بل كان الواقع أحد أمرين: إما افتراقهما ونكاحها غيره، وإما بقاؤها عليه وإنْ تأخر إسلامها أو إسلامه. وأما تنجيز الفرقة أو مراعاة العدة فلا نعلم أنَّ رسول الله ﷺ قضىٰ بواحد منهما مع كثرة من أسلم في عهده من الرجال وأزواجهم وقرب إسلام أحد الزوجين من الآخر وبعده منه)[2].

---

(١) انظر: الأسرة في الغرب، ص٢٩٣.

(٢) زاد المعاد: ٥/ ١٨٧ - ١٨٩.

ولم يكن انتظار زينب رضي الله عنها هو الشيء الوحيد الذي بذلته في سبيل إبقاء بيتها ورباط الزوجية الذي عقدته، فلقد أظهرت في سائر أيامها ما يدل علىٰ فضيلتها وعقلها، فحين وقع زوجها أسيراً في يد المسلمين في غزوة بدر كانت حينها في بيته في مكة لأنه أبىٰ عليها الهجرة! فأرسلت في فدائه قلادة من جزع كانت خديجة أدخلتها بها علىٰ أبي العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ عرفها ورقَّ لها، وذكر خديجة فترحم عليها، وكلم الناس فأطلقوه وردَّ عليها القلادة، وأخذ علىٰ أبي العاص أنْ يخلي سبيلها، ففعل[1].

ومن ذلك أيضـًا ما صنعته في السنة السادسة من الهجرة، حين قفل من الشام بتجارة قريش، فأخذت سريةُ زيد بن حارثة أموالهم، فأفلَتْ منهم، وقدم المدينة في ظلام الليل إلىٰ زينب رضي الله عنها مستجيراً بها، فأجارته، وقبل النبي ﷺ ذلك منها وأصحابه، وسألها أبو العاص أنْ تطلب له من رسول الله ﷺ رد ماله عليه وما كان معه من أموال قريش، ففعلت، فردَّ النبي ﷺ أمواله وأموال قريش كلها بعد أنْ رضي الصحابة بذلك، فعاد بها إلىٰ مكة، فأسلم وهاجر إلىٰ المدينة، فرد النبي ﷺ عليه زينب بنكاحها الأول[2].

---

(١) الإصابة: ٨/ ١٥١.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام: ١/ ٦٥٧.

فتأملي أيتها الفاضلة كيف تصنع قدوات المؤمنات من أجل الحفاظ علىٰ بيوتهن! هذا في حال اختلاف الدين، الاختلاف الذي يوجب البراءة، لكنه لا يمنع من الفضائل والمروءات.

الصبر على مرِّ الحياة الزوجية

صبرٌ من نوع آخر، وهو الصبر علىٰ مرِّ الحياة الزوجية؛ وما يكتنفها في بعض الأحيان من ضروب الفقر والجوع والمرض وتحول النعمة ونحو ذلك مما تصاب به البيوت ابتلاء من الله ورفعة في الدرجات وتطهيراً من الذنوب، فيظهر حينها جوهر الزوجة الصابرة، الزوجة التي تلزم زوجها في الحال البائسة كما لزمته في الحال المنعمة، وتحفظ ودَّه في الضراء كما ذاقت حلاوته من قبل في السراء. ولقد كانت زوج أيوب عليه السلام كذلك، بل ضربت أروع الأمثلة علىٰ الصبر، وذلك حين ابتلي أيوب بفقد المال والأهل والصحة بعد غنىٰ وسعة واجتماع وصحة، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص:٤١-٤٤]. قال ابن كثير: (لم يبق من جسده مغرز إبرة سليماً سوىٰ قلبه، ولم يبق له من حال الدنيا شيء يستعين به علىٰ مرضه وما

هو فيه غير أنَّ زوجته حفظت ودَّه لإيمانها بالله تعالىٰ ورسوله؛ فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحواً من ثماني عشرة سنة. وقد كان قبل ذلك في مال جزيل وأولاد وسعة طائلة في الدنيا فسُلب جميع ذلك حتىٰ آل به الحال إلىٰ أنْ أُلقي علىٰ مزبلة من مزابل البلدة هذه المدة بكمالها، ورفضه القريب والبعيد سوىٰ زوجته رضي الله عنها، فإنها كانت لا تفارقه صباحاً ومساء إلا بسبب خدمة الناس ثم تعود إليه قريباً)[1].

والمقصود هنا هو النظر إلىٰ ثماني عشرة سنة من البلاء بعد العافية والفقر بعد الغنىٰ والوحشة بعد الإيناس، ثماني عشرة سنة قضتها زوجة أيوب صابرة منتصبة لخدمة زوجها ملازمة له.

فأي عذرٍ لمن تمزق قلبها لأجل فوات كماليات؟

وكيف تتشوف المرأة إلىٰ هدم بيتٍ لأنه لا يجاري الموضات والمستجدات؟

ها هي زوجة أيوب عليهما السلام تقف مع زوجها في أحلك الظروف وأشد الأزمات، تمنحه هدوء النفس وطمأنينة البال، تسند إليها ظهره وتستر عجزه، تخفي أحزانها لتكتم سره، فكانت مكافأة الله العاجلة لها أنْ أعاضها بعد ذلك بالسعادة والغنىٰ والسعة في عصمة زوجها.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٤٢٩.

إنَّ عرض قصص القدوات الصالحات يوضح لنا الطريقة التي كنَّ ينظرن بها إلىٰ مبدأ الزواج وحرمة البيوت وشأن الأزواج علىٰ اختلاف مذاهبهم وطباعهم وأديانهم، فيتعبَّدن الله تعالىٰ بالحفاظ علىٰ هذا الرباط واحترامه وتقديمه علىٰ رغباتهن وشهواتهن، فإنَّ مرارة الزواج خير من حلاوة التفرد.

وإنَّ علىٰ المرأة المسلمة اليوم أنْ تحرر عقلها من ثقافة (بيت العنكبوت) التي صنعتها وسائل الإعلام المضلِّلة عن طبيعة الحياة الزوجية وقيمة الزواج في حياة المرأة، والتي شيدت - علىٰ مدىٰ عشرات السنين - المفاهيم الأجنبية للزواج وبيت الزوجية في مجتمعات المسلمين، تلك المفاهيم التي لا تؤمن بالله ولا تستهدي بأنوار الوحي، وإنما تتبع أهواء النفوس ووحي الشيطان ولو كان ذلك علىٰ حساب تدمير المجتمع وبيوته وأولاده.

وإنَّ علىٰ المرأة المسلمة اليوم أنْ تحرر قلبها ووجدانها من تأثير وسائل الاتصال التي تزيف الواقع بتلميع يوميات اللاتي يزعمن التخلص من أسر الحياة الزوجية. إنها مباهج مؤقتة وسعادة مزيفة تخادع بها المرأة نفسها، ويزين لها الشيطان ذلك لمدة محددة ثم يتركها للشقاء وحدها؛ فإما أنْ تنخلع مما تلبَّست به من البؤس والشقاء وتعود كما كانت وإما الولوج من بوابة التحرر المزعوم إلىٰ ما لا منتهىٰ له من الانحراف، ولا شيء يسلك بالمرأة - والرجل أيضًا -

في المسلك المرضي إلا اتباع الوحي الإلهي، الذي حث علىٰ حفظ البيوت واحترام مبدأ الزوجية، وإنَّ المكافأة الكبرىٰ والجائزة العظمىٰ لتنتظرها يوم أنْ تلقىٰ الله وهي معظِّمة لهذا المبدأ متعبدة لله تعالىٰ به؛ علىٰ الرغم من الصعاب التي اكتنفت حياتها من شظف في العيش أو سوء في طباع الزوج أو تقصيره في طاعة الله أو معاناة في تربية الأولاد. عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنة من أي أبواب الجنة شئت)[1].

وإنَّ علىٰ المرأة المسلمة التي ابتليت بمُر الحياة الزوجية أنْ تصبر ما وسعها الصبر، وأنْ تحتسب أجر الصبر عند الله؛ فإنَّ هذا الصبر عبادة، متذكرةً قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠]. فإنْ شعرت بالعجز والضعف لجأت إلىٰ باب الله تعالىٰ تدعوه وتسأله أنْ يجعلَ لها فرجًا ومخرجًا، وأنْ يصلحَ حالها ومعاشها ومعادها، وعلىٰ هذا كن العاقلات من النساء.

---

(١) أخرجه أحمد، حـ ١٦٦١، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٦١.

أدب الساقيتين

المجتمع الذي يتحلىٰ أهله بمكارم الأخلاق وتتجذر في معادنهم المروءات لا تحتاج فيه المرأة إلىٰ الخروج من بيتها طلباً للرزق والسعي وراء لقمة العيش في معية الرجال، لأنَّ هذا واجب الرجال لا النساء، وعلىٰ الرجال أنْ يعوا واجباتهم ويهتموا بمسؤولياتهم، وكما أنَّ علىٰ النساء واجبات لا يطيقها غيرهن فكذلك الرجال؛ يجب عليهم بعض الأمور التي لا تستطيعها النساء أو لا تناسب خلقتهن وفطرتهن.

والمجتمع الناضج يسعىٰ في إعفاف المرأة وتفريغها لواجباتها الحقيقية التي يغلب عليها شؤون البيت والتربية، سواء كانت زوجة أو أماً أو بنتاً أو أختاً أو قريبة أو بعيدة، فإن اضطرت للخروج من بيتها بحثاً عن لقمة العيش والسعي في طلب الرزق وجدت من الرجال مسارعة إلىٰ خدمتها وتيسير السبل لها لكي ترجع سريعاً إلىٰ بيتها. قال العلَّامة بكر أبو زيد: (الأصل لزوم النساء البيوت، لقول الله تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[الأحزاب:٣٣]. فهو عزيمة شرعية في حقهن، وخروجهن من البيوت رخصة لا تكون إلا لضرورة أو حاجة، ولهذا جاء بعدها: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[الأحزاب:٣٣] أي: لا تكثرن الخروج متجملات أو متطيبات كعادة أهل الجاهلية. والأمر بالقرار في البيوت حجاب لهن بالجُدر والخُدُور عن البروز أمام الأجانب وعن الاختلاط،

فإذا برزن أمام الأجانب، وجب عليهن الحجاب باشتمال اللباس الساتر لجميع البدن والزينة المكتسبة)[1]. فالشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة[2].

والقرآن الكريم بأسلوبه البديع يروي لنا طرفًا من أخبار موسىٰ فيها عبرة لمن أراد الاعتبار في هذا الشأن، فيقول تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[القصص:٢٣-٢٤].

فحين خرج موسىٰ عليه السلام من مصر خائفًا وتوجه تلقاء مدين وجد في أول وصوله إليها حالة من نقص المروءة في رجالها؛ وذلك أنه وجد جماعة من الرجال يسقون من ماء مدين - وهو بئر قريب قعره يغطىٰ بصخرة كبيرة عند الفراغ من السقي - ووجد الرجال يتزاحمون عليه مشمرين عن سواعدهم، وكل واحد يريد أنْ يأخذ نصيبه من الماء ليسقي حوضه وماشيته، ولمح دون ذلك امرأتين تنتظران بعيداً عن الرجال، ومعهما ماشيتهما، فلمس ضعفهما عن مزاحمة الرجال ومشقتهما في الحصول علىٰ الماء، بل إنهما

---

(١) حراسة الفضيلة، ص٨٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١١٧.

لا تستطيعان رفع الصخرة الموضوعة علىٰ فم البئر، فتلجأان إلىٰ سقي ماشيتهما مما يتبقىٰ من الماء الذي صبه الناس لمواشيهم في الحياض[1]، فأصابت موسىٰ حالة من الذهول، وفاضت منه أخلاق الكرام وذوي المروءة والشهامة، قال ابن إسحاق: (وجد لهما رحمة، ودخلته فيهما خشية لما رأىٰ من ضعفهما وغلبة الناس علىٰ الماء دونهما)[2]. وهو الذي دفع للتو ثمن شهامته حين انتصر للإسرائيلي المستضعَف من القبطي بأنْ أصبح مستهدفًا بالقتل من الملأ، وهو ما جعله يخرج من مصر لأول مرة في حياته، وإلىٰ وجهة غير معروفة، ويفارق النعيم والأحباب والأصدقاء والوطن.

فقال لهما: ما خطبكما؟ وهو سؤال يدل علىٰ استعظامه للأمر، قال ابن عطية: (وكأنَّ استعمال السؤال بالخطْب إنما هو في مصاب أو مضطهد أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر)[3]. فأجابت المرأتان: ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. فالمرأتان كذلك تدركان أنَّ خروجهما لرعي الماشية وسقيها وما يتبع ذلك من أعمال إنما هو استثناء وليس أصلاً، دعتهما الحاجة إلىٰ ذلك، فهما تعتذران عن فعلهما بواقع حالهما، ولسان

---

(١) انظر: جامع البيان: ١٨/ ٢١١

(٢) المصدر السابق.

(٣) المحرر الوجيز: ٧/ ٤٩٤.

حالهما يقول: ما لنا ولمزاحمة الرجال في أعمالهم، وما لنا وللخروج من بيتنا لولا الحاجة. فكان في اعتذارهما تنبيه علىٰ ما يستحق أنْ يكون ضابطًا لخروج المرأة من بيتها وخدرها إلىٰ مواطن الرجال بغية طلب الرزق والمعاش، إذا أخذنا في الاعتبار كون ذلك المجتمع ناقص المروءة قليل الصيانة، وقد أشار القرآن إلىٰ هذه الجزئيات لما فيها من تربية لأمة الإسلام علىٰ الاستقامة في الحياة الاجتماعية.

الخروج المنضبط

أول ضابط في خروج المرأة بحثًا عن الرزق والمعاش مما يلوح لنا من أفق الآية الكريمة، هو عدم الاختلاط بالرجال في مكان العمل، كما قالت المرأتان: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ﴾. والرعاء هم رعاة الماشية الذين يسقون لها الماء بأنْ يرفعوا الصخرة عن البئر ويملؤون دلاءهم منه ثم ينصرفون عنه ويصبونه في حياضهم فتشرب الماشية منها. فهما تنتظران صدور الرعاء، قال السعدي: (أيْ قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقيٌ حتىٰ يُصدِر الرعاء مواشيهم؛ فإذا خلا لنا الجوُّ سقينا)[1]. والعلة في ذلك هو ما ينتج عن امتزاج الرجال بالنساء من الفساد الأخلاقي وقلة الديانة والوقوع في الفاحشة ومقدماتها واستضعاف المرأة وإلحاق الأذىٰ بها؛ مما نزَّه الإسلام المرأة والرجل عن السقوط في شيء من ذلك. قال ابن القيم: (ولا ريب أنَّ تمكين

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٢٧٧.

النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كلِّ بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة. واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام، والطواعين المتصلة. ولما اختلط البغايا بعسكر موسىٰ، وفشت فيهم الفاحشة: أرسل الله تعالىٰ عليهم الطاعون، فمات في يوم واحد سبعون ألفاً، والقصة مشهورة في كتب التفاسير)[1]. وقد فسر مجاهد قول الله تعالىٰ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب:٣٣] بقوله: (كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية)[2].

أما إذا اشتمل هذا الاختلاط علىٰ خلوة بينهما فإنَّ الشيطان يكون حينها أقرب إلىٰ كل واحد منهما من الآخر، قال رسول الله ﷺ: (لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان)[3]. فيكون الشيطان حاضراً مؤججاً لشهوة كلٍّ منهما ليوقعهما في الفاحشة الكبرىٰ أو مقدماتها من كلام ونظر ومباشرة وملامسة وتقبيل.

أما إذا عملت المرأة في بيئة عمل نسائية خالصة، وعملت مع بنات جنسها فقد تحقق لها هذا الضابط.

---

(١) الطرق الحكمية: ٢/ ٧٢٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٤١٠.

(٣) أخرجه الترمذي، حـ ٢١٦٥.

وثاني ضابط في خروج المرأة بحثًا عن الرزق والمعاش مما يلوح لنا من أفق الآية الكريمة، هو وجود السبب المشروع لذلك من فقد الولي أو ضعفه، كما قالت المرأتان: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾. قال ابن عباس: (لا يستطيع أنْ يدفع عن نفسه، وليس له أحد يقوم بشأنه، ولا يعينه في رعاية غنمه وسقيها؛ فنحن نرعاها ونتكلف سقيها)[1]. ورعي الماشية هو رزق أهل مدين حينها، وسقيها بحاجة إلىٰ قوة ومزاحمة، فلا الشيخ يطيق ذلك، ولا المرأتان تطيقانه أيضًا، لكنهما كانتا تسقيان مما يتبقىٰ من سقي الرعاء.

وحين لا يوجد للمرأة من يكفيها من أهلها، ولا تجد في المجتمع من يكفيها مؤونة طلب الرزق والمعاش فإنها ستضطر إلىٰ الخروج للعمل والكسب.

وثالث ضابط في خروج المرأة بحثًا عن الرزق والمعاش مما يلوح لنا من أفق الآية الكريمة، هو أنْ يكون العمل الذي ستعمله ملائمًا لقدراتها، لا قدرات الرجال، وقد تجنبت المرأتان ورود الماء لأنهما لا تستطيعان حمل الصخرة وسحب الدلو، قال البغوي: (ومعنىٰ الآية: لا نسقي مواشينا حتىٰ يصدر الرعاء؛ لأنا امرأتان لا نطيق أنْ نسقي، ولا نستطيع أنْ نزاحم الرجال، فإذا صدروا سقينا

(١) موسوعة التفسير المأثور: ١٧/ ٧٧.

مواشينا ما أفضلت مواشيهم في الحوض)[1]. والمرأة لا تحسن الكثير من عمل الرجال ولا تقواه، لوجود الاختلاف بينهما في الخِلقة والقوة والتفكير والوجدان، كما مر بنا تحت قوله تعالىٰ: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[آل عمران:٣٦]. والمرأة التي تنكر ذلك إنما تخادع نفسها وتجحد حقيقة تكوينها وفطرتها، والرجال يقرون بأنَّ ثمة وظائف وأعمال لا يطيقونها وليس لهم القدرة علىٰ تحملها رغم أهميتها البالغة، فكذلك ينبغي للنساء أنْ يرجعن إلىٰ أصل خلقتهن وفطرتهن التي فطرهن الله عليها، قال بكر أبو زيد: (إنَّ الإسلام دين الفطرة، وإنَّ المصلحة العامة تلتقي مع الفطرة الإنسانية وسعادتها؛ إذاً فلا يباح للمرأة من الأعمال إلا ما يلتقي مع فطرتها وطبيعتها وأنوثتها؛ لأنها زوجة تحمل وتلد وتُرضع، ورَبَّةُ بيت، وحاضنة أطفال، ومربية أجيال في مدرستهم الأولىٰ: «المنزل»)[2]. ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[النساء:٣٢].

ولقد كانت امرأتا مدين علىٰ قدر كبير من إدراك هذا الأمر، وعلىٰ قدر كبير من الإنصات إلىٰ نداءات الفطرة السوية، لذلك بادرتا

---

(١) معالم التنزيل: ٣/ ٤٣٣.

(٢) حراسة الفضيلة، ص٩٤.

بالاقتراح علىٰ أبيهما أنْ يستأجر موسىٰ للقيام بالأعمال التي هي من شأن الرجال بدلاً عنهن.

ورابع ضابط في خروج المرأة بحثًا عن الرزق والمعاش مما يلوح لنا من أفق الآية الكريمة، هو أنْ تكون مدة الخروج مرتبطة بقدر الحاجة المنوطة بالعمل فقط، ثم ترجع إلىٰ بيتها دون البقاء بلا حاجة، قال ابن إسحاق: (حتىٰ إذا فرغوا أسقينا ثم انصرفنا)[1]. لأنها إنما خرجت للضرورة، فصار خروجها استثناءً لا أصلاً، والضرورة تُقدَّر بقدرها، فلزمها الرجوع إلىٰ الأصل - وهو البيت - لتعلقها بأعماله ووظائفه الواجبة، ولوجوب قرارها ونأيها عن مواطن الرجال وأعمالهم وأسواقهم.

وخامس ضابط في خروج المرأة بحثًا عن الرزق والمعاش مما يلوح لنا من أفق الآية الكريمة، هو أنْ تستر محاسنها وتلتزم الحجاب، وبذلك فسر عمر بن الخطاب ﷺ[2] قوله تعالىٰ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾[القصص:٢٥]. لأنها تعلم يقينًا أنَّ محاسنها تفتن الرجال، وقد قال النبي ﷺ: (إنَّ المرأة تُقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان)[3]. فالشيطان يزين للرجل صورة المرأة وهي في كامل حشمتها وحجابها؛ فكيف به إذا أسفرت عن وجهها وزينتها!

(١) جامع البيان: ١٨/ ٢١٢.
(٢) جامع البيان: ١٨/ ٢١٨.
(٣) أخرجه مسلم، حـ ٢١٥١.

وسادس ضابط في خروج المرأة من بيتها بحثًا عن الرزق والمعاش مما يلوح لنا من أفق الآية الكريمة، هو إذْن وليها وعلْمه، فإنَّ هاتين المرأتين ما كانتا لتخرجان إلا بعلم أبيهما وإذنه، كما هو مفهوم في الآية الأولىٰ، ومنصوص في الآية الأخرىٰ: ﴿**قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا**﴾، فإنَّ لولي المرأة حق في الإذن لها ومنعها، كما له الحق في العلم بوقت خروجها ومكانه، وهذا مقتضىٰ قوامة الرجل وصلاح المرأة الواردين في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء:٣٤]. فقوامة الرجل إمرته علىٰ زوجته، واستئذانها زوجها في خروجها من قنوتها وحفظها للغيب اللذين بهما تكون صالحة؛ وعلىٰ هذا كافة أهل التفسير والفقه، وكذلك المرأة مع وليها إنْ لم يكن زوجًا كالأب والأخ ونحو ذلك.

فهذه ستة ضوابط مستنبطة من الآيات التي جاءت بخبر المرأتين مع موسىٰ عليه السلام، لمن كان له قلب أو ألقىٰ السمع وهو شهيد.

امتزاج القول بالحياء

كم هو عدد الكلمات التي تفوهت بها المرأتان؟

لقد كان حديثهما مختصراً موجزاً، يؤدي المقصود ويفي

بالغرض، دون الحاجة إلىٰ التلطف والتملق، ودون الحاجة إلىٰ التوسع والشروحات.

فحين سألهما موسىٰ عليه السلام: ما خطبكما؟ قالتا: لا نسقي حتىٰ يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فكانت هذه الجملة كافية في بيان سبب مجيئهما، وسبب ذودهما للماشية دون الرجال، وفهم حاجتهما لسقي الماء الذي لا تستطيعانه، وفهم حالتهما الاجتماعية، مع ما فيه من أدب واحتشام.

وحين أراد أبوهما مكافأته قالت إحداهن: إنَّ أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا.

لكن الله تعالىٰ وصف لنا الطريقة التي بها قالت ما قالت، فقال تعالىٰ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[القصص:٢٥].

فهي أولاً أوجزت العبارة دون إخلال بالمعاني، فهو كلام بقدر الحاجة فقط، وكأنها تقول له: لك حق علينا ويريد أبي أنْ يكافئك علىٰ صنيعك.

وهي ثانيًا أحسنت الأدب في العبارة، فلم تطلب منه المجيء لمجرد المجيء، بل لغرض محدد يُشعر السامع بأنَّ لمجيئه عندهم وقت محدد ينقضي بانقضاء الغرض، قال ابن كثير: (وهذا تأدب في

العبارة؛ لم تطلبه طلباً مطلقاً؛ لئلا يوهم ريبة)[1]. وهذا أحد معاني الاستحياء، ومن كانت هكذا فهي منزهة - من باب أولىٰ - عن بذيء القول، كما قال الحسن: (بعيدة من البذاء)[2].

وهي ثالثاً جاءت تمشي علىٰ استحياء، فلا تتكسر في مشيتها ولا تنزع إلىٰ لفت نظر المخاطَب إليها، بل تتستر وتتحجب، قال عمر بن الخطاب ﷺ: (لم تكن سلفعاً من النساء خرَّاجة ولَّاجة، قائلة بيدها علىٰ وجهها). وقال: (مستترة بكم درعها أو بكم قميصها)[3]. واستدل السعدي بهذا الفعل علىٰ كرم عنصرها وخُلقها الحسن[4].

وهي رابعاً لم تتكلم معه إلا لحاجة، وذلك أنَّ أباها أرسلها إليه لتدعوه، ولو استطاع أبوها أنْ يأتيه لما أرسلها.

فهذه آداب الحديث التي يجب علىٰ المرأة أنْ تتقيد بها إذا احتاجت الحديث مع الرجال، أما الخضوع بالقول فقد جاء النهي الرباني عنه، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب:٣٢]. وهو القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل وانكسارها عنده[5].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ١٢.
(٢) جامع البيان: ١٨/ ٢٢٠.
(٣) الأثران عند الطبري: ١٨/ ٢١٨.
(٤) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٢٧٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٣٨٤.

فخ التضليل المفاهيمي

المنظومة الرأسمالية العالمية تدعو المرأة إلىٰ الخروج من بيتها إلىٰ العمل في مختلف الأنشطة التجارية والصناعية والاجتماعية التي يعمل بها الرجال، وتدعو إلىٰ توظيفها في مختلف القطاعات دون مراعاة لطبيعة خلقتها وإمكاناتها، وتصف المرأة التي تفعل ذلك بالمرأة العاملة، وتصنفها في الإحصاء والتخطيط ضمن القوىٰ العاملة، بينما تصف المرأة التي بقيت في بيتها ربة بيت، عاطلة، ولا تصنفها ضمن القوىٰ العاملة.

وتزعم تلك المنظومة والمتأثرون بها أنَّ المجتمع بحاجة إلىٰ عمل المرأة، وأنه في هذه الحال يجب تلبية تلك الحاجة والمساهمة في بناء المجتمع، وأنَّ المرأة حين تمتنع من ذلك فإنها تكون عبئًا علىٰ المجتمع لا مصدر قوة فيه، أيْ أنها تستهلك ولا تنتج!

وتوصي تلك المنظومة حكومات العالم بـ (أنْ تعترف بحق الرجل والمرأة في العمل في ظروف متساوية، واتخاذ التدابير لتنفيذ ذلك، بغض النظر عن الحالة الزواجية، والمساواة بينهما في فرص الوصول إلىٰ مجموع الأنشطة الاقتصادية)[1].

---

(١) تقرير المؤتمر العالمي لعقد الأمم المتحدة للمرأة: المساواة والتنمية والسلم ١٩٨٠م، نقلاً عن: قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية ص٧٩٦.

وهنا يتشوش البعض فتنطلي عليه هذه الخدعة المفاهيمية، فينساق خلف شعار حاجة المجتمع، وأهمية عمل المرأة، وينوح البعض علىٰ حال المجتمعات التي لا تخرج فيه النساء إلىٰ الوظائف والمتاجر والمصانع بحجة تعطيل عجلة التنمية.

ونحن نقول: إنَّ العمل مطلوب من المرأة بلا شك، فإنَّ الله علمنا أنَّ الدين لا يقوم بدون عمل وأنَّ النجاة لا تكون إلا بوجود العمل، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[العصر:١-٣]، وأخبرنا أنَّ النساء يستوون مع الرجال في التكليف بأصل العمل، فقال تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖ﴾[آل عمران:١٩٥]، وقال تعالىٰ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[النحل:٩٧]. فالمرأة مطلوب منها أنْ تعمل طلبًا شرعيًا كالرجل.

ثم إنَّنا نقول: نعم؛ المجتمع بحاجة إلىٰ عمل المرأة، ويجب أنْ تكون منتجة نافعة؛ لا شك في ذلك، للوصول إلىٰ الحياة الطيبة، ولكن أي عمل؟ هل هو العمل الذي تقرره الشريعة البيضاء أم هو العمل الذي تقرره الرأسمالية العولمية؟

العمل المطلوب هو العمل الذي تقرره الشريعة، فالمرأة تتعبد لله بالعمل الصالح ورعاية الزوج وتربية الأولاد وصيانة المنزل وحفظ البيت الذي يمثل الوحدة الأساسية في المجتمعات المطمئنة، فالأم والزوجة يصنعان مستقبل الأمة بذلك.

أليس التزام المرأة بيتها لتربية الأولاد ورعاية الزوج وحفظ البيت عملاً يشكره الله ويشكره المجتمع؟ أليس صلاح الأولاد واستقرار البيوت مطلبًا شرعيًا وهدفًا اجتماعيًا؟

ويمكن للمرأة أن تقدم إسهاماتها العلمية والاجتماعية من دون اللجوء إلىٰ الخروج من البيت علىٰ الطريقة الرأسمالية التي لم يعهدها المسلمون إلا بعد حقبة الاستعمار، وأعني بهذه الطريقة العمل في موقع خارج البيت تعمل المرأة فيه لعدد من الساعات يوميًا.

ثم إذا هي خرجت وعملت فخالطت الرجال أو اشتغلت بما لا يلائم فطرتها وخلقتها؛ أفلا تكون عاصية لله مغضبة له؟ فأي خير لهذا المجتمع الذي لا يلبي حاجته إلا بمعصية الله ونبذ فطرته!

وقد تصدىٰ أئمة العلم والدعوة في عصر ما بعد الاستعمار لهذا التضليل، وصنفوا الرسائل وكتبوا المقالات ونصحوا للأمة، ومن ذلك ما خطه العلَّامة ابن باز رحمه الله فقال في مقال يعالج فيه هذه المسألة: (ومعلوم أنَّ الله تبارك وتعالىٰ جعل للمرأة تركيبًا خاصًا يختلف تمامًا عن تركيب الرجال؛ هيأها به للقيام بالأعمال التي في

داخل بيتها، والأعمال التي بين بنات جنسها. ومعنىٰ هذا: أنَّ اقتحام المرأة لميدان الرجال الخاص بهم يعتبر إخراجاً لها عن تركيبها وطبيعتها، وفي هذا جناية كبيرة علىٰ المرأة وقضاء علىٰ معنوياتها وتحطيم لشخصيتها، ويتعدىٰ ذلك إلىٰ أولاد الجيل من ذكور وإناث؛ لأنهم يفقدون التربية والحنان والعطف، فالذي يقوم بهذا الدور هو الأم قد فُصِلَت منه وعُزلَت تماماً عن مملكتها التي لا يمكن أنْ تجد الراحة والاستقرار والطمأنينة إلا فيها، وواقع المجتمعات التي تورطت في هذا أصدق شاهد علىٰ ما نقول.

والإسلام جعل لكل من الزوجين واجبات خاصة، علىٰ كل واحد منهما أنْ يقوم بدوره ليكتمل بذلك بناء المجتمع في داخل البيت وفي خارجه. فالرجل يقوم بالنفقة والاكتساب، والمرأة تقوم بتربية الأولاد والعطف والحنان والرضاعة والحضانة، والأعمال التي تناسبها لتعليم الصغار وإدارة مدارسهن والتطبيب والتمريض لهن ونحو ذلك من الأعمال المختصة بالنساء.

فترك واجبات البيت من قبل المرأة يعتبر ضياعاً للبيت بمن فيه، ويترتب عليه تفكك الأسرة حسياً ومعنوياً، وعند ذلك يصبح المجتمع شكلاً وصورة لا حقيقة ومعنىٰ)[1].

---

(١) مجموع فتاوىٰ ومقالات ابن باز ١/ ٤١٩، بعنوان: خطر مشاركة المرأة الرجل في ميدان عمله.

ومن المهم أنْ تدرك المرأة أنَّ الأعمال المتوافرة اليوم خارج البيت إنما صنعت قوالبها علىٰ يد الرأسمالية، وهذا القوالب لا تناسب طبيعة المرأة ولا ترعىٰ أنوثتها، وإنَّ المرأة يمكنها أنْ تكون معلمة ومتعلمة وعالمة وطبيبة وممرضة وحائكة وخائطة مع بنات جنسها دون الحاجة إلىٰ كثير من القوالب المعروفة اليوم.

ولقد كانت المرأة تتعلم وتعلم وتحدث وتؤلف وتفتي وتمرض النساء وتطببهن من قبل أنْ توجد هذه القوالب؛ أي قبل الاستعمار، ولقد كانت عائشة ﵂ عالمة بالحديث والفقه، عالمة بالطب والأنساب، وكانت تحدث وتفتي وتعلِّم وتصلح دون أنْ تخدش إيمانها وسترها، وعلىٰ هذا كانت نساء المسلمين عبر القرون.

الصهر الصالح

ما زلنا في سياق قصة امرأتي مدين عليهما السلام، يقول الله تعالىٰ: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾[القصص:٢٥-٢٦].

للوهلة الأولىٰ يلمس القارئ أربع خصال تربَّىٰ عليها هذا البيت الكريم:

أولها: الحياء والاحتشام، الذي يلمسه في مجيئها الحيي وكلامها المحتشم.

وثانيها: بر البنات بأبيهن، الذي يلمسه في خدمتهن له، والقيام بأعماله، وحُسن خطابهنَّ له.

وثالثها: العقل وحصافة الرأي، الذي يلمسه في فراستها وطلبها استعماله علىٰ رعي الغنم إجارة.

ورابعها: الكرم والشهامة، الذي يلمسه في مبادرة أبيهما بدعوة موسىٰ وإكرامه ومكافأته وتأنيسه من وحشته وتأمينه من خوفه.

وهذا من حسن تدبير الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام، فإنَّ الله تعالىٰ حين أراد أنْ يهيئ موسىٰ للمهمة العالمية العظيمة قدَّر له أنْ يكون

حاضراً حين اقتتل القبطي والإسرائيلي، ليتخذ بعدها قرار الخروج من مصر والفرار منها، فيمكث الأيام والليالي طريداً جائعًا خائفًا، ثم يدخل مدين فيجد امرأتين تذودان، فيسقي لهما، فيسخِّر الله له هذا البيت الطيب ليكون فيه سكنه ومأمنه ومعاشه وحياته الجديدة، بعد الخوف والفرار، وبعد مجاورة الطغاة والظالمين، فيمكث في مدين عشر سنوات فَقِه فيها الحياة وتعلَّم كثيراً من شؤونها، واتسعت مداركه وتزوج من خير بيوت الأرض حينها حشمة وحياء وكرمًا وشهامة وعقلاً وحصافة رأي، واستقرت نفسه وسكنت.

لقد كان من شأن إحدىٰ المرأتين أنْ تفرست في موسىٰ أهليتَه لتولي أعمال البيت الخارجية، من رعي الغنم والسقي من الجبِّ... ونحو ذلك، وكان من شأن أبيها أنْ عرض علىٰ موسىٰ تزويجه إحدىٰ ابنتيه، فقال لموسىٰ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[القصص:٢٧].

وأول معْلَم نراه في هذا الزواج المبارك مبادرة الشيخ الكبير بعرض إحدىٰ ابنتيه لتكون زوجة لموسىٰ، قال القرطبي: (فيه عرض الولي ابنته علىٰ الرجل، وهذه سنة قائمة، عرَض صالحُ مدين ابنته علىٰ صالحِ بني إسرائيل، وعرَض عمر بن الخطاب ابنته حفصة علىٰ أبي بكر وعثمان، وعرضت الموهوبة نفسها علىٰ النبي ﷺ. فمن

الحسن عرْض الرجل وليته، والمرأة نفسها علىٰ الرجل الصالح، اقتداء بالسلف الصالح)[1].

وثاني معْلَم في هذا الزواج المبارك انقطاع المرأة عن العمل خارج البيت بمجرد انعقاد النكاح: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾. فالأصل في الحياة الزوجية السوية أنَّ زواج المرأة وعملها خارج البيت لطلب الرزق والمعاش لا يجتمعان، وينبغي أنْ يعالج الخطأ في هذه المسألة لتعود المرأة إلىٰ الوظائف الأساسية التي تناسب فطرتها وتحفظ كرامتها، وأول ما يبدأ الاعتناء بهذه المسألة من عند ولي المرأة فيذكِّر الخاطب أنه يستودع موليته عند من يكرمها فيحفظها ولا يلجئها إلىٰ الخروج لطلب الرزق والمعاش، ولربما جعله شرطًا للزواج كما فعل شيخ مدين مع موسىٰ، فانظر الفرق بين ولي يشترط أنْ يتحمل الرجل العمل عن زوجته وولي يشترط علىٰ الزوج أنْ يأذن لزوجته في الخروج إلىٰ العمل!

ونحن هنا - وفي الفصل السابق كذلك - لا نبحث مسألة عمل المرأة بحثًا تأصيليًا مفصلاً شموليًا، فليس هذا منهج الكتاب، وإنما نستضيء بنور الآيات الواردة في قصص الصالحات من النساء، فهو من باب التأسيس لا المعالجة، وأقول ذلك لأنه ربما يرِد علىٰ القارئ هنا سؤال مفاده: ماذا لو كان الزوج فقيراً وأرادت زوجه

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٧٩.

مساعدته بالمال فاحتاجت إلىٰ العمل؟ أو ماذا لو احتاجت المرأة غير المتزوجة للعمل مع اختلال بعض الضوابط؟ وغير ذلك من الأسئلة التي محلها البحث الفقهي والفتيا العلمية اللذان يأخذان بمجموع النصوص وقواعد الاجتهاد.

معايير زوجية

وثالث مَعْلَم في هذا الزواج المبارك تلك المعايير التي بوجودها رغب الشيخ الكبير تزويج موسىٰ إحدىٰ ابنتيه، وهي ذاتها ينطبق عليها قول النبي ﷺ: «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخُلقه فزوجوه، إلَّا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض»[1]. وفي هذا الحديث بيَّن لنا النبي ﷺ أهمية المعايير في تزويج الخاطب، والتي تتجلىٰ في منع الفتن والفساد، وفي ذلك يقول المُظهري: (يعني إذا طلب أحدٌ منكم أنْ تزوِّجوه امرأةً من أولادكم أو أقاربكم، فانظروا فإنْ كان مسلماً صالحاً حسن الخلق فزوِّجوه؛ لأنكم لو لم تزوجوا نساء أقاربكم إلا من معروف صاحب مال وجاه وغير ذلك من الصفات التي يميل إليها أبناء الدنيا يبقىٰ أكثر نسائكم بلا زوج، ويبقىٰ أكثر الرجال بلا زوجة، وحينئذٍ يميل الرجال إلىٰ النساء، والنساء إلىٰ الرجال، ويكثر الزنا، ويلحق الأولياءَ العارُ بنسبة الزنا إلىٰ نسائهم. وربما تغلب غيرةٌ علىٰ أقاربهم بما سمعوا من نسبة الزنا إليهن، فيقتلوهن، ويقتلون من

(١) أخرجه الترمذي، حـ ١٠٨٤.

قصدهن بالفواحش، وهذا كله فساد عريض، وفتنة كبيرة)[1].

وفي قصة موسىٰ ظهرت المعايير بطريقة تدعو إلىٰ التأمل:

فإنَّ إحدىٰ المرأتين قالت: يا أبت استأجره. فطلبت من أبيها أنْ يستأجره للعمل عنده، ليقوم بالأعمال التي لا يصلح للقيام بها إلا الرجال، واستدلت علىٰ صلوحيته للعمل بقوته وأمانته، وأنَّ القوة والأمانة أهم صفات من يُطلب للعمل أجيراً.

ولقد ظهرت قوة موسىٰ في جانبين، أحدهما قوته الجسدية، وذلك حين أزاح الصخرة بمفرده؛ وهو للتو جاء من سفر بعيد ومشقة وخوف وعناء وجوع، وقد أوضحت المرأة ذلك حين سألها أبوها عن حقيقة علمها بقوته، فقالت: (أما قوَّته فما رأيت منه حين سقىٰ لنا؛ لم أر رجلاً قط أقوىٰ في ذلك السقي منه). قال مجاهد: (رفع حجراً لا يرفعه إلا فئام من الناس)[2].

والجانب الآخر من قوته: حُسن عمله وسرعته مما يدل علىٰ معرفته وذكائه وقدرته العملية، قال قتادة: (القوي في الصنعة). وقال: (بلغنا أنَّ قوته كانت سرعة ما أروىٰ غنمهما، وبلغنا أنه ملأ الحوض بدلو واحد)[3].

---

(١) المفاتيح في شرح المصابيح: ٤/ ١٣.
(٢) الأثران في جامع البيان: ١٨/ ٢٢٥.
(٣) جامع البيان: ١٨/ ٢٢٨

ولقد ظهرت أمانة موسىٰ في جانبين:

أحدهما اعتناؤه بالعمل، فإنه سقىٰ لهما بأحسن سقي وأكمله، دون الاكتفاء بأقل الواجب فيه، فهو «أمين علىٰ ما ولي، أمين علىٰ ما استُودع» كما قال ابن عباس رضي الله عنهما[1]. أيْ أنه رجل لديه إحساس بالمسؤولية والالتزام بما يستعد لعمله، ويستطيع أنْ يتحمل أعباء ما يُوكل إليه من مهامَّ وأعمال، لأنه يأخذ الأمور بجدية.

والجانب الآخر ظهر في طريقة حديثه معهما ومشيه مع الداعية حتىٰ البيت، وما تخلل ذلك من أدب واحتشام وغض بصر وبعد عن الريبة، قالت الواصفة: (وأما أمانته فإنه نظر حين أقبلتُ إليه وشخصت له، فلما علم أني امرأة صوَّب رأسه فلم يرفعه، ولم ينظر إليَّ حتىٰ بلَّغته رسالتك، ثم قال: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ولم يفعل ذلك إلا وهو أمين)[2]. فهو رجل لا يتطلع إلىٰ الحرمات من الأموال والأعراض.

فهذه صفات من يصلح للعمل أجيراً، مجموعة في قول المرأة: «القوي الأمين». قال السعدي: (وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولىٰ للإنسان عملاً؛ بإجارة أو غيرها، فإنَّ الخلل لا يكون إلا

---

(١) جامع البيان: ١٨/ ٢٢٥.

(٢) جامع البيان: ١٨/ ٢٢١.

بفقدهما أو فقد إحداهما. وأما باجتماعهما فإنَّ العمل يتم ويكمل)[1].

والذي يدعو إلىٰ التأمل هنا أنَّ أباهما حين سمع ما حكته المرأة من قوة موسىٰ وأمانته استدلالاً علىٰ صلوحيته للعمل بالإجارة رأىٰ الأب أنَّ هاتين الصفتين هما اللتان يرغب الآباء وجودهما فيمن يأتيهم لخطبة بناتهم، هذا إذا أضفتَ إليها ما اشتملت عليه أخلاق موسىٰ من الرحمة والشهامة والمروءة التي ظهرت في مبادرته إلىٰ السقي لهما.

وهنا اجتمعت ديانة الرجل وعفته وأمانته وقوته وقدرته علىٰ تولي الأعمال، ولو كانت يسيرة.

وهنا أيضـًا رغب الشيخ الكبير في تزويجه، لأن من يملك هذه الصفات هو الذي يؤتمن علىٰ المرأة إذا تزوجها.

الرجل الذي لديه قدر جيد من الديانة والأمانة، وقدر من الشهامة والمروءة، وقدر من المسؤولية والجدية، وقدر من القوة الجسدية والنفسية هو الذي ينبغي ألَّا تردَّه الفتاة أو أبوها.

كرامة التقوى فحسب

ولعلك تنبهت إلىٰ أنَّ الشيخ الكبير أسقط معيارين يهتم بها أهل الدنيا غالبـًا:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٢٧٨.

فأولاً لم يعبأ بفقر موسىٰ وخلو جيبه من المال، وهذا من حصافة عقل الشيخ، فإنَّ المال يعوض، وهو رزق من الله يؤتيه من يشاء ويمنعه من يشاء، فنظر بدلاً عنه إلىٰ عناية موسىٰ بالعمل وتحمله له واستعداده النفسي له، والدليل علىٰ ذلك أنَّ موسىٰ لم يمانع من العمل أجيراً عند الشيخ لمدة ثماني سنوات، بل قضاها عشرة كاملة وأوفاها. فالعبرة بالجدية والمسؤولية وحسن التدبير، وليست بما يملك من المال.

وثانيـًا لم يعبأ بكفاءة النسب حين تحقق من تجذر الديانة والخُلُق الرفيع في موسىٰ. ذكر القرطبي اختلاف العلماء هل في الدين والمال والحسب كفاءة، أو في بعض ذلك، قال: (والصحيح جواز نكاح الموالي للعربيات القرشيات لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]. وقد جاء موسىٰ إلىٰ صالح مدين غريبـًا طريداً خائفـًا وحيداً جائعـًا عريانـًا فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه ورأىٰ من حاله، وأعرض عما سوىٰ ذلك)[1]. وصحح الموفق ابن قدامة القول بعدم اشتراط الكفاءة في صحة النكاح[2]، وقال: (وهذا قول أكثر أهل العلم. رُوي نحو هذا عن عمر وابن مسعود وعمر بن عبد العزيز، وعبيد بن عمير وحماد بن أبي سليمان وابن سيرين وابن

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٨٤.
(٢) المغني: ٩/ ٣٨٨.

عون ومالك والشافعي وأصحاب الرأي). قال ابن القيم: (وزوَّج النبي ﷺ زينب بنت جحش القرشية من زيد بن حارثة مولاه، وزوَّج فاطمة بنت قيس الفهرية القرشية من أسامة ابنه، وتزوج بلال بن رباح بأخت عبد الرحمن بن عوف، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور:٢٦]. وقال تعالىٰ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء:٣].

فالذي يقتضيه حكمه ﷺ اعتبارُ الدين في الكفاءة أصلاً وكمالاً، فلا تزوَّج مسلمةٌ بكافر، ولا عفيفةٌ بفاجر، ولم يَعتبر القرآنُ والسنةُ في الكفاءة أمراً وراء ذلك، فإنه حرم علىٰ المسلمة نكاح الزاني الخبيث، ولم يعتبر نسبًا ولا صناعة ولا غنىٰ ولا حرية، فجوَّز للعبد القنِّ نكاحَ الحرة النسيبة الغنية؛ إذا كان عفيفًا مسلمًا، وجوَّز لغير القرشيين نكاح القرشيات، ولغير الهاشميين نكاح الهاشميات، وللفقراء نكاح الموسرات)[1].

وتتبُّع هذه المسائل يجعلنا نلحظ أمراً مهمًا، وهو أنه حين تقدمت المعايير الصحيحة في الزواج وتراجع غيرها إلىٰ الوراء تحسنت حالة التفكير في إصلاح عقد النكاح وظهر تيسيره في بذل المهر المقدور عليه، وذلك أنَّ موسىٰ عليه السلام كان يمتلك القدرة علىٰ العمل ولا يملك المال الذي يدفعه مهراً للزواج، فراعىٰ الشيخ

(١) زاد المعاد: ٥/ ٢٢١.

هذا الأمر فجعل مهر ابنته العمل بالإجارة لديه، وهذه حصافة عقل؛ إذ أكرم ابنته بأنْ جعل لنكاحها مهراً وارتضاها زوجة لرجل جمع بين القوة والأمانة، ولرجل لا يُلجئ زوجته إلىٰ السقي مع الرعاء لتجلب الماء، بل يحفظها في بيتها ويقوم هو بفعل ما يلزم، بعيداً عن مخالطة الرجال ومزاحمتهم.

وهذا الملحظ يفتح للآباء أفقًا أوسع من اشتراط المال في تزويج بناتهم، إذا تأملوا ونظروا في حالهم وواقعهم، ويبصِّر البنات بما هو أهم من المال في عقد النكاح وفي حياتهم الزوجية، ولقد زوَّج النبي ﷺ بعض أصحابه بما معه من القرآن، فقال: «قد زوجتكها بما معك من القرآن»[1]. وقد رضيت أم سليم من أبي طلحة أنْ يكون مهرها دخوله في الإسلام، فقالت: (والله يا أبا طلحة ما مثلك يُردُّ، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة، ولا يحل لي أنْ أتزوجك، فإنْ تُسلم فذاك مهري؛ وما أسألك غيره)[2]. قال ابن القيم: (تضمَّن أنَّ المرأة إذا رضيت بعِلم الزوج وحفظه للقرآن أو بعضه من مهرها جاز ذلك، وكان ما يحصل لها من انتفاعها بالقرآن والعلم هو صَداقها، كما إذا جعل السيد عتقها صداقها، وكان انتفاعها بحريتها وملكها لرقبتها هو صداقها، وهذا هو الذي اختارته أم سليم من انتفاعها بإسلام أبي

---

(١) أخرجه البخاري، حـ ٥١٢٣.

(٢) أخرجه النسائي، حـ ٣٣٤١.

طلحة، وبذلها نفسها له إنْ أسلم، وهذا أحب إليها من المال الذي يبذله الزوج، فإنَّ الصداق شُرع في الأصل حقـًا للمرأة تنتفع به، فإذا رضيت بالعلم والدين وإسلام الزوج وقراءته للقرآن كان هذا من أفضل المهور وأنفعها وأجلِّها)[1].

الرجل القوام والمرأة الصالحة

حين يكون الرجل علىٰ قدر جيد من القوة والأمانة؛ يتحمل المسؤولية ويبذل من نفسه لزوجته فإنه يجب عليها أنْ تسير في ركابه وتحت جناحه في غير معصية لله، وهذا هو مقتضىٰ الحياة المستقرة المبنية علىٰ عنصرين سبقت الإشارة إليهما، وهما الرجل القوام القائد والمرأة المطيعة المحتشمة، وكان موسىٰ - عليه وعلىٰ زوجه السلام - مثالاً لهذه الحياة المستقرة. فلقد تزوج بها علىٰ العمل لمدة ثماني سنوات فأتمها عشراً، مستصحبـًا ديانته وأخلاقه ومروءته وأمانته، واستصحبت هي حياءها واحتشامها وعقلها ومروءتها.

وبعقد النكاح الذي أصبحت بنت الشيخ الكبير زوجةً لموسىٰ نلاحظ أنَّ القرآن يُمسك عن الحديث عن تفاصيل في حياتها طيلة المدة التي مكث فيها موسىٰ في مدين، فلربما شعر قارئ القرآن أنَّ هذه المرأة دخلت في خباء زوجها وتحجبت ببيته فإنَّ البيت حجاب

---

(١) زاد المعاد: ٥/ ٢٤٨.

للمرأة، فلم يُعرف عنها شيء بعد ذلك لاحتشامها وقصرها نفسها علىٰ زوجها؛ فيا لله ما أجمل روحها وأحكم عقلها! ويا لله ما أبلغ وصف القرآن وأبْيَن عباراته!

والقرآن يطوي تلك السنوات العشر في حديثه عن موسىٰ، فنفهم كل ذلك بالاستصحاب، ثم يقفنا القرآن علىٰ مشهد من مشاهد الزوجية الدالة علىٰ قوة السيرة الزوجية السوية رغم التعب والعناء، فيقول الحق سبحانه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص:٢٩].

ذلك أنَّ موسىٰ قضىٰ ما عليه من صداق زوجه، ووفَّىٰ حقها وحق أبيها؛ فاشتاق إلىٰ العودة إلىٰ بلاده وأهله، وعزم علىٰ زيارتهم، لكنه لم يفعل ذلك قبل استيفاء الحق الذي عليه لزوجته وأبيها.

ثم إنه كان ينوي أنْ يكون متخفيـًا في مصر، لأنه مطالَب مطارد من الملأ، وفي هذا نوع خطر عليه، وربما تقول قائلة: ينبغي ألَّا تقبل زوجه بهذه المخاطرة، إلا أنَّها ذهبت معه حيث اتجه. والقرآن لا يقول: ذهبت معه. كما قلت أنا، وإنما قال: ﴿سَارَ بِأَهْلِهِ﴾ ليشير إلىٰ أنَّ المرأة ينبغي أنْ تكون مع زوجها في إقامته وسفره إذا أمرها بذلك، فتسير معه إذا أراد ذلك وتمكث في مكانها إذا أمرها بذلك، قال القرطبي: (فيه دليل علىٰ أنَّ الرجل يذهب بأهله حيث شاء؛ لما له عليها من

فضل القوامية وزيادة الدرجة، إلا أنْ يلتزم لها أمراً فالمؤمنون عند شروطهم، وأحق الشروط أنْ يوفىٰ به ما استحللتم به الفروج)[1].

والمرأة التي اعتادت البر بأبيها والإحسان إليه وطاعته لا يصعب عليها أنْ تسير مع زوجها سيرة صالحة، لأنَّ ذلك يدل علىٰ معانٍ صالحة في نفسها وتصورٍ صحيح للحياة ورجاحة عقل، وتأمَّل وجود هذا الرابط بين الأمرين في قصة البيت المدْيَني رضوان الله عليهم.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ ما يشعر بيقظة موسىٰ وتلمسه لحوائج مسيره ومسير أهله، فهو متحسس للطريق وما فيه وما حوله لأنَّ مسؤولية هذه الرحلة تقع علىٰ عاتقه، وكذلك مسؤوليات طلب الرزق وحماية أهل البيت.

ثم هو حين أبصر النار من بعيد وأراد أنْ يستفيد منها قام هو بالذهاب إليها دون أهله فإنَّ مسؤولية معرفة الطريق وجلب ما تحتاجه زوجه من التدفئة تقع عليه، وهو يستشعر ذلك ويقوم بواجبه.

وهكذا يكون التكامل في الوظائف علىٰ وجه الحقيقة. وهكذا تستقر الحياة الزوجية، قال تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٣/ ١٨٦.

قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[النساء:٣٤]. هذه معادلة النجاح والاستقرار، وهذا ميزان القسط.

والقوامة ولاية شرعية للرجال علىٰ نسائهم، شرعها الله تعالىٰ لهدف مهم، وجعل لها شرطًا، وهيأ فطرَتي الرجل والمرأة لها، فأصبحت القوامة بذلك إكسيراً لبناء المجتمعات القوية والعابدة لربها.

فأما هدف القوامة فهو تنظيم البيوت التي تتكون منها المجتمعات والأمم واستقرارها وأطْرها علىٰ الإسلام ومكارم الأخلاق. وأما شرطها فهو القدرة علىٰ توفير ما تحتاجه هذه البيوت من السكنىٰ والكسوة والطعام وما يلزم من المال تلبية لاحتياجات الحياة المهمة قدر المستطاع.

ثم إنَّ الله هيأ فطرة الرجل للعمل الشاق ومكابدة السوق والبحث عن الرزق والابتعاد عن البيت والجهاد في سبيل الله وكثرة الخطىٰ في المصالح العامة، حتىٰ هذه الغيرة الكامنة في الرجل جعلها الله بابًا لحماية المرأة مما يسوؤها وصيانة لها عن الانفلات الأخلاقي وما يسببه من اختلاط الأنساب وضياع النسل.

وهيأ الله سبحانه فطرة المرأة لهذه القوامة فحبب إليها أنْ تكون في معيَّة الرجل، تأتمر بأمره وتسارع في هواه، وهذا أحد الأسباب التي لأجلها حرم الله تعالىٰ اختلاط الرجال بالنساء؛ إذ تدفعها فطرتها إلىٰ

المعية التي لا تنبغي أنْ تُبذَل إلا للزوج أو لذي محرم، فمن الرجل السيادة ومن المرأة المعيَّة، ومن الرجل السكن المادي ومنها السكن النفسي، ومن الرجل بذل المال ومن المرأة بذل الخدمة، ومن الرجل غيرة تدفعه لحمايتها ومنها غيرة تدفعها إلىٰ قربها منه، ومن الرجل تعبيد طريق الحياة للأولاد ومن المرأة تربيتها لهم، ومن الرجل رجولته ومن المرأة أنوثتها.

قوامة لا سلطة

والقرآن يسميها قوامة، لما تحمله من معاني التسيُّد الممزوجة بالحفظ والنظر والرحمة، ولا يسميها سلطة كما تفعل قواميس الحضارة الغربية فتقول: «سلطة الرجل»، وفرقٌ بين الاسمين وما يحملانه من معانٍ ودلالات، قال ابن فارس: (السين واللام والطاء أصل واحد، وهو القوة والقهر، من ذلك السلاطة، من التسلط وهو القهر)[1]. وهذا مدعاة إلىٰ تأمل الأسماء والمصطلحات التي أثبتتها النصوص الشريفة وما تدل عليه ومقارنتها بالأسماء والمصطلحات التي وضعها الناس وفق أهوائهم وأفكارهم.

وإنما تسمي قواميس الحضارة الغربية القوامة سلطة لتنفِّر النساء عن فطرة الزواج وجمال معيَّته؛ كما هي عادة المحرِّفين من

---

(١) مقاييس اللغة: ١/ ٥٦٧.

المنافقين ومن أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٧٥]. وإنما تفعل ذلك لتكرِّس في وجدان المرأة: الفردانية، وتنزع منها المعية الفطرية وما تقتضيه من الطاعة والصلاح والصيانة، وفي ذلك تقول الكاتبة الأمريكية أدريان ريتشي Adrienne Rich: (إنَّ نظام الزوجية تم فرضه علىٰ النساء ترهيباً وترغيباً، كما أنَّ هوية النساء تعدُّ مصدر قوة تم تحجيمها وتبديدها بعنف في ظل نظام الزوجية. الوضع يحتاج إلىٰ إدراكٍ جريء للترويج السياسي والاقتصادي والثقافي للزواج... إدراكٍ نتجاوز به الحالات الفردية أو حالات المجموعات المختلفة إلىٰ نوع من الرؤية المركبة المطلوبة لإزالة سلطة الرجال التي يلوحون بها في كل مكان في وجه النساء)[1]. وهكذا يتنادون اليوم بضرورة نقل المفهوم من القوامة إلىٰ السلطة والقهر والعنف، ليتم تنفير المجتمعات المسلمة من شريعة الله التي رفقت بالمرأة وارتقت بها ونظَّمت حياتها.

(١) الأسرة في الغرب، ص٢٩٤.

بيوت القصب

من خير ما تُستهلُّ به هذه السطور حديث أبي هريرة ﷺ قال: (أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناءٌ فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[1].

فهذا الحديث من أجلِّ ما ورد في فضائل الزوجات، فهو يتضمن إقراء السلام من الله لها ويتضمن بشارتها ببيت القصب في الجنة ثواباً لها علىٰ سيرتها الحسنة مع زوجها ﷺ، قال ابن حجر: (كانت حريصة علىٰ رضاه بكل ممكن، ولم يصدر منها ما يغضبه قط كما وقع لغيرها... قال السهيلي: مناسبة نفي هاتين الصفتين أنه ﷺ لما دعا إلىٰ الإسلام أجابت خديجة طوعاً، فلم تحوجه إلىٰ رفع صوت ولا منازعة ولا تعب في ذلك، بل أزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وهوَّنت عليه كل عسير، فناسب أنْ يكون منزلها الذي بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها)[2].

فتأمل عظيم هذا الثواب: هل أُعطيته لكونها ثرية غنية؟ أم لأنها بارعة الجمال؟

---

(١) أخرجه البخاري، حـ ٣٨١١.

(٢) فتح الباري: ٧/ ١٣٨.

كلا! وإنما أعطيت هذا الثواب لنجاحها في أنْ تكون زوجة صالحة لزوجها تسره إذا نظر إليها وتطيعه إذا أمرها وتحفظه إذا غاب عنها وتسارع في هواه وتسكن خاطره وتزيل عن نفسه شعث الحياة ووحشتها.

ولا تظن أنَّ خديجة لم يكن لديها مقومات أخرىٰ للنجاح في حياتها؛ فقد كانت امرأة تاجرة تضارب بمالها، وعندها شبكة من العلاقات التي تصلها بالرجال، لكنها كانت حيية عفة محتشمة، لم تنزلق في أيٍّ من الحفر المخبوءة تحت هذه الشبكات، وذلك قبل زواجها من محمد ﷺ وبعده، وقبل نبوته وبعثته، فاجتمع فيها الجمال والعقل والثراء والعفاف.

قليلة تلك البيوت التي يثني الله علىٰ أهلها ونسائها بأعيانهم في كتابه العزيز؛ لمزيد فضل لا لانعدام الخير في الناس، ولذلك فإنَّ هذا الثناء الرباني يعدُّ من مفاخر التاريخ الممتدة عبر الأزمان والعصور، ومن ذلك ما ثنَّاه القرآن الكريم من الحديث عن آل إبراهيم وأهل بيته، فقال تعالىٰ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[هود:٧٣]. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]. قال ابن كثير: (يخبر تعالىٰ أنه اختار هذه البيوت علىٰ سائر أهل الأرض)[1].

(١) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣٣٧.

عرى المودَّة

وإنما بدأتُ بذكر مآثر خديجة رضي الله عنها لكثرة ما ترد علىٰ ذهني عند قصة سارة زوج إبراهيم عليهما السلام، لما بينهما من التشابه في التثبيت والشحنة النفسية الهائلة والصبر علىٰ الصحبة، وإبراهيم عليه السلام ولد ببابل (العراق) وتزوج سارة، وكانت عاقراً لم تلد إلا وهي عجوز، وقد كانت مؤمنة صابرة مُحِبَّة، مع ما حباها الله من الجمال، وكان إبراهيم عليه السلام يحبها كثيراً ويحفظ لها ودَّها، قال السدي: (وكانت سارة من أحسن الناس فيما يقال، وكانت لا تعصي إبراهيم شيئـًا؛ ولذلك أكرمها الله عز وجل)[1].

وقد تفشت عبادة الأصنام والكواكب آنذاك، وعمَّ الكفر أصقاع الأرض، قال ابن كثير: (وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام، وكل من علىٰ وجه الأرض كانوا كفاراً سوىٰ إبراهيم الخليل وامرأته سارة وابن أخيه لوط عليهم السلام)[2].

وطوال مسيرته الزوجية ورحلاته الدعوية الشاقة؛ حظي إبراهيم عليه السلام بقلبٍ محبٍّ عطوف، ذلكم قلب (سارة) عليها السلام، ولقد شهدته سارة وهو يدعو الناس في بابل العراق إلىٰ توحيد الله

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ١/ ١٥٠.

(٢) البداية والنهاية ١/ ٢٠٩.

بالعبادة والتعظيم ويناظرهم عليه، قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات:٨٥-٨٧]، شهدته وهم ينالون منه وينال منهم، ويغلبهم بحجته وبراهينه، ثم يغامر بنفسه فيعمد إلىٰ أصنامهم التي يعظمونها فيكسرها، ثم يجتمعون علىٰ فكرة قتله، فيجمعون له الحطب ويوقدون ناراً عظيمة، فيلقونه فيها، فيَسلم بإذن الله من الاحتراق والموت.

ثم يناظره ملك بابل (النمرود بن كنعان) علىٰ الربوبية؛ أيْ أنَّه كان يدعي الربوبية مع الألوهية، وكان ملكًا عظيمًا، وعن مجاهد أنه كان أحد ملوك الدنيا[1]، أيْ أنه كان من الملوك القلائل الذين ملكوا الدنيا، فينتصب إبراهيم عليه السلام وحده للمناظرة مع الملك الطاغية، فيقيم حجته عليه ويغلبه بها، لكن الملك لم يؤمن بالله رغم وضوح الحجة، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة:٢٥٨].

كل هذه الأحداث التي غشيتها المعاناة، وامتزجت بها مرارة الأذىٰ والهجر والجفاء، وكل هذه المعاناة التي يعيشها إبراهيم عليه السلام حدثت وسارة تعيش في كنفه، فيصيبها من لأواء حياته وشدتها

(١) معالم التنزيل: ١/ ٢٧٣.

بسببه ما يصيبها، فلا ضجر ولا صخب، ولا عوق ولا تثبيط، ولا تأفف من تلك الحياة التي عاشتها معه.

ثم يهاجر إبراهيم من بابل، بعد أنْ عرَّف أهلها علىٰ التوحيد وحذرهم من عبادة الأصنام، فتكون سارة معه كذلك، مفارقةً لقومها وما يعبدون، مختارةً لإبراهيم ودينه وطريقه علىٰ قومها، لا تلوي علىٰ شيء، فينزلان بلدة «حرَّان» فيدعو الناس إلىٰ عبادة الله وحده فتكون معه تؤنسه وتسكنه وتعينه، ثم يرحل إلىٰ بلاد «بيت المقدس» حيث المكان الذي يتمكنون فيه من عبادة الله وحده دون أذىٰ، ويتمكن هو من دعوة الناس إلىٰ توحيد الله، فترضىٰ سارة بما رضيه، وتقيم معه في كنفه وبيته صابرة راضية.

ثم يرتحل إبراهيم عليه السلام إلىٰ مصر داعيـًا إلىٰ عبادة الله وحده، وهو يعلم أنَّ فيها ملكـًا جباراً وأنَّ هذه البلاد قد تكون شراً وخطراً عليه، وسارة معه، تقيم معه حيث يقيم، وتظعن حيث يظعن، لا تلوي علىٰ شيء، ولا تنأىٰ عن مسير زوجها ومهامه الشاقة، فيُبتليان بطغيان الحاكم ابتلاء شديداً، فقد أراد الطاغية سارة عن نفسها، ذلك أنَّ المخبرين وصفوا له حسنها وجمالها، قال رسول الله ﷺ: (بينا هو ذات يوم وسارة، إذ أتىٰ علىٰ جبار من الجبابرة، فقيل له: إنَّ ها هنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه فسأله عنها، فقال: من هذه؟ قال: أختي. فأتىٰ سارة قال: يا سارة ليس علىٰ وجه الأرض

مؤمن غيري وغيرك، وإنَّ هذا سألني فأخبرته أنك أختي، فلا تكذبيني. فأرسل إليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأُخذ، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت الله فأُطلق، ثم تناولها الثانية فأُخذ مثلها أو أشد، فقال: ادعي الله لي ولا أضرك. فدعت فأُطلق، فدعا بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان. فأَخدَمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيا؟ قالت: رد الله كيد الكافر - أو الفاجر - في نحره، وأَخدَم هاجر)[1].

وفي هذا الابتلاء يتجلىٰ عظيم إيمان سارة رضي الله عنها، ويتجلىٰ صدقها مع زوجها وحفظه له في غيبته عنها أمام ذلك الملك الجبار، فتتقوىٰ عرىٰ الحب والمودة بينهما، فلا غرو أنْ يُعْظم الله لها الأجر والثواب في الدنيا والآخرة. إنها الزوج التي أحبها إبراهيم كأشد ما يحب الرجل زوجه، فلا ينتظر إلىٰ فراغه من الصلاة ليسألها، بل يشير بيده سائلاً مستعجلاً سماع خبرها.

قِوام البيت

إذا كان الزوج قَوَّام البيت فإنَّ الزوجة قِوَام البيت وسكنه وبهجته، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم:٢١]، وسيرة الزوجة في بيتها ومواقفها مع زوجها تعبِّران

(١) أخرجه البخاري، حـ ٣٣٦٢.

عن مقدار حصَّة البيت من السكن المشتمل علىٰ معاني الاستقرار والهدوء والطمأنينة والابتهاج، ومما يحسن تأمله في هذا السياق حال أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها أولَ ما نزل الوحي علىٰ النبي ﷺ وقدم من غار حراء مذعوراً خائفـًا، قالت عائشة رضي الله عنها: (رجع رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتىٰ دخل علىٰ خديجة، فقال: «زملوني زملوني». فزملوه، حتىٰ ذهب عنه الروع، قال لخديجة: «أيْ خديجة! ما لي؟ لقد خشيت علىٰ نفسي». فأخبرها الخبر، قالت خديجة: كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين علىٰ نوائب الحق)[1]. فلله هذا الموقف الدافئ، الذي حوَّلت فيه خديجة خوف زوجها إلىٰ أمان واضطرابه إلىٰ سكون.

ولقد كانت سارة نعم المعين ونعم السند لزوجها، وصدق القائل: «وراء كل عظيم امرأة». فإنها بعد أنْ كبر سنها ولم تنجب ولداً لإبراهيم رأتْ أنْ تهب له هاجر يتسرىٰ بها فيكون له منها ولد؛ حبـًا منها لزوجها ومسارعة في هواه وإعانة له علىٰ مقاصد البيت إضافة إلىٰ سيرتها الحسنة معه وصبرها علىٰ معاناته، قال ابن إسحاق: (وكانت هاجر جارية ذات هيئة، فوهبتها سارة لإبراهيم، وقالت: إني أراها امرأة وضيئة فَخُذْها لعل الله يرزقك منها ولداً)[2]. لقد وهبته هاجر وهي

(١) أخرجه البخاري، حـ ٤٩٤٢.
(٢) تاريخ الأمم والملوك: ١/ ١٥١.

ترىٰ وضاءتها وجمالها وشبابها، فتتغلب علىٰ غيرتها إكراماً لزوجها وإحساناً إليه، وإدراكاً لما يترتب علىٰ ذلك من الفضل والثواب.

وقد كان إبراهيم عليه السلام مكرماً للضيوف، وكانت سارة تخدمه في ذلك وتعينه، والقرآن يقص علينا طرفاً من ذلك، يقول الله تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[الذاريات:٢٤-٢٨]. وفي موضع آخر يقول جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰٓ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾[هود:٦٩-٧١]. قال السدي: (بعث الله الملائكة لتهلك قوم لوط، فأقبلت تمشي في صورة رجال شباب، حتىٰ نزلوا علىٰ إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم إبراهيم أجلَّهم، فراغ إلىٰ أهله فجاء بعجل سمين، فذبحه، ثم شواه في الرضف، فهو الحنيذ حين شواه، وأتاهم فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم، فذلك حين يقول: وامرأته قائمة، وهو جالس)[1].

فمن مجموع النصوص ندرك ما تحلَّت به سارة من الصبر مع زوجها وتفانيها في إسعاده وخدمته وخدمة ضيوفه وتسكين خاطره،

(١) جامع البيان: ١٢/ ٤٧٣.

والله تعالىٰ يؤدب نساء المؤمنين بأخبار خيرة النساء في العالم للاقتداء والتأسي.

عرىٰ المودة توجب علىٰ الزوجة أنْ تحتمل معاناة الطريق الذي يسير فيه زوجها، ليس طريق الدعوة والجهاد فقط، بل طريق الحياة والمعاش، أما التي تعبِّئ وجدانها بالضجر من فقر زوجها وقلة ذات اليد أو تفرش لسانها بالتأفف من انشغاله عنها بمصالح مهمة أو تسلُّ صوتها عليه لاختلافٍ في الطباع أو سوء في الخُلق فإنها لا تستطيع أنْ تنشر السكينة في بيتها، ولا أنْ تكون سكنًا لزوجها وأولادها؛ إنها تنقض عرىٰ المودة فلا تفلح في أنْ تكون زوجة صالحة، وهذا ما حدا بإبراهيم عليه السلام أنْ يأمر ابنه إسماعيل أنْ يطلق امرأته لأجله! قال ابن عباس: (جاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت نحن بِشَرٍّ؛ نحن في ضيق وشدة. فشكَتْ إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألَنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أنْ أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك. قال: ذاك أبي، وقد أمرني أنْ أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها، وتزوج أخرىٰ،

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل علىٰ امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة. وأثنت علىٰ الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم. قال فما شرابكم؟ قالت الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُرِيه يثبت عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير. قال: فأوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أنْ تثبت عتبة بابك. قال: ذاك أبي وأنتِ العتبة، أمرني أنْ أمسكك)[1]. وفي رواية أبي جهم: (ويأمرك أنْ تثبت عتبة بابك فإنها صلاح المنزل)[2]. وعند قوله: «فإنها صلاح المنزل» ينبغي أنْ تقف المرأة نفسها لتتأمل عمق دلالات هذه الكلمة، وما يحويه صلاح المنزل من السكن والحفظ والصيانة والنماء والعون والضبط والرعاية، ثم تنظر في نفسها لترىٰ أين موقعها من ذلك كله.

جمال المعيَّة

ومعية سارة لزوجها الخليل ليست فلتة في الزمان، بل هي الأصل في الحياة الزوجية السوية، وفي واقع الأمر أنَّ كثيراً من آيات القرآن لا تعْمد

---

(١) أخرجه البخاري، حـ٣٣٦٨.

(٢) فتح الباري: ٦/ ٤٦٥.

إلىٰ إخراج الزوجة عن سياق زوجها، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾[البقرة:١٠٢]. وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾[آل عمران:٣٥]. وقوله تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ﴾[التحريم:١٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾[التحريم:١١]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾[القصص:٢٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ﴾[هود:٧١]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾[المسد:٤]. وقوله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾[الأحزاب:٣٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾[الأنبياء:٩٠]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف:٢٥].

وهذه الآيات وغيرها تُذكَر فيها المرأة متصلة بزوجها، سواء كان ذلك بالإضافة إلىٰ اسمه أو إلىٰ الضمير المتصل العائد عليه، وهذا من بلاغة القرآن وبيان مراميه، فمن صالح القول أنْ تُذكَر المرأة بذاتها فتُسمىٰ باسمها كما سمي الرجال بأسمائهم، ولكن أدب القرآن يهدينا بأسلوبه إلىٰ معانٍ عميقة؛ جاءت بها الفطرة، وعليها تكوَّن الخلق، كاتصال المرأة بزوجها اتصالاً يمزجها به، فيصبح جزءاً من تعريفها كما أنها هي في الأصل جزء من خَلقه، منه ابتدأت وإليه تأوي، قال

تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء:١]. فهذه الحقيقة - أعني خلق حواء من نفس آدم - تؤثر في المعاني والصفات، ليتم الاكتمال والسكن والاستقرار في حياة الناس، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾[الروم:٢١].

ويترتب علىٰ هذا الاتصال معية المرأة لزوجها، المعية الفطرية التي لم ترَ المرأة فيها بأسًا ولا عيبًا في يوم من الأيام، إلا بعد هيمنة الثقافة الغربية الرأسمالية وما أفرزته من الفردانية والنسوية اللتين تسببتا في شقاء امرأة هذا العصر وهدم فطرتها وشرخ شخصيتها حين حرضتها علىٰ رفض المعية الزوجية. ورأينا من قبلُ زوجةَ موسىٰ عليه السلام التي سار بها موسىٰ في سفره من مدين إلىٰ مصر، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾[القصص:٢٩]. وهكذا النساء مع الرجال.

وهذه الفطرة - أعني معية المرأة لزوجها - مما جعلها الله تعالىٰ بوابة لقوامة الرجال علىٰ النساء، أيْ أنَّ الله - جل شأنه - غرس في المرأة تطلعها إلىٰ قوامة الرجل وتشوُّفها إلىٰ سيادته وقبول أمره ونهيه والقدرة علىٰ العيش في كنفه وخبائه؛ لتستقر البيوت تحت قيادة واحدة ورأس واحد فينتظم أمر الأمة كلها بانتظام بيوتها. هذا هو نظام الحياة والخلق.

وحين أخبر الهدهد بما رأىٰ في سبأ مما يُستنكر ويُستغرب ذكر للنبي سليمان عليه السلام ثلاثة أمور علىٰ وجه الاستنكار، حكاها القرآن في قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل:٢٣-٢٤]. فمما ذكره علىٰ وجه الإنكار ولاية المرأة علىٰ مملكة سبأ؛ إذ كيف يُعقل أنْ تقوم امرأة بأمر مملكة أو أنْ تدفع عنها! ولا عجب فإنَّ تلك الملِكة (بلقيس) حين قدمت علىٰ سليمان عليه السلام، ورأت وسمعت ما يدعوه إلىٰ إسلامها، قالت: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[النمل:٤٤]. فمع أنَّ أصل الإسلام هو نفي الواسطة بين العبد وربه إلا أنها ذكرت إسلامها بمعية سليمان، لا قصداً منها أنْ يكون سليمان واسطة بينها وبين الله تعالىٰ، ولكنها فطرة المعية وتطلُّع المرأة لها. ولقد رأينا (سارة) رضي الله عنها كيف شاركت إبراهيم أفراحه وأتراحه، وهجرته ودعوته، ثم لا تقول: أُفٍّ! ولا ترغب عنه.

البيت المبارك

بعد أنْ لقي إبراهيم عليه السلام كلَّ هذا الصدود والجفاء ولم يؤمن برسالته أحد من قومه غير سارة ولوط دعا الله تعالىٰ أنْ يجعل الإيمان في عقبه وذريته، لكنه قد طعن في السن وليس له ولد! وكبر

حتىٰ جاوز الثمانين من عمره[1]، وكذلك زوجُه سارة قد كبرت وهي عاقر لا تلد، وبالرغم من صعوبة الإنجاب في هذا الظرف إلا أنَّ المؤمن لا ينقطع رجاؤه بالله القادر علىٰ كل شيء، والقاهر فوق كل شيء. قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[الصافات:٩٩-١٠٠]، وحينها جاءته البشرىٰ بالذرية، قال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[الصافات:١٠١]. من هنا بدأ عهد جديد من البركات والنعم.

فبعد رجوع إبراهيم عليه السلام وسارة من مصر إلىٰ الشام، ومعهما (هاجر) التي أهداها الملك الجبار جارية لسارة، وبعد أنْ مكث في بلاد بيت المقدس عشر سنين قالت له سارة: إنَّ الرب قد أحرمني الولد، فادخل علىٰ أَمَتي هذه - تعني هاجر - لعل الله يرزقنا منها ولداً. فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام، فحين دخل بها حملت منه[2]. فكان هذا الحمل بداية عهد جديد في حياة إبراهيم عليه السلام، إذ ولدت هاجر الابن البكر لإبراهيم: إسماعيل.

وبسبب الغيرة حصل التفريق بين سارة وهاجر لحكمة يريدها الله تعالىٰ، فارتحل إبراهيم بهاجر ووليدها إسماعيل إلىٰ مكة (بأمر من الله تعالىٰ) وهي يومئذٍ وادٍ مقفر موحش، ليس به إنس ولا ماء

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ٣٨٥.
(٢) البداية والنهاية: ١/ ٢٢٧.

ولا حياة. قال ابن عباس: (أول ما اتخذ النساء المِنْطق من قِبَل أم إسماعيل؛ اتخذت مِنطقًا لتعفِّي أثرها علىٰ سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه، حتىٰ وضعهما عند البيت، عند دوحة فوق زمزم، في أعلىٰ المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفَّىٰ إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: آللهُ الذي أمرك بهذا؟ قال نعم. قالت: إذنْ لا يضيعنا. ثم رجعتْ، فانطلق إبراهيم حتىٰ إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات، ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[إبراهيم:٣٧])[1].

وهنا تستوقف القارئ قوة الإيمان في نفس إبراهيم، وفي نفس هاجر كذلك، فإبراهيم يستجيب لأمر الله تعالىٰ بإسكان سريته هاجر وابنه الذي ولد علىٰ كِبَر سنه في هذا الوادي البعيد المقفر، ويستجيب لأمر الله تعالىٰ بتركهما لوحدهما والرجوع إلىٰ الشام، وهاجر ترضىٰ بصنيعه حين تعلم أنه أمْر من الله ليقينها أنَّ الله لا يضيعها، وهذا من قوة إيمانها.

---

(١) أخرجه البخاري، حـ٣٣٦٨.

اليقين بالله والثقة بتدبيره جعل هاجر تقول: (إذن لا يضيعنا).

وكأنها تقول لإبراهيم: اذهب إلىٰ حيث وجَّهك الله وأمرك، ولا تخشَ علينا من الضيعة والهلاك، وطالما أنت في طاعة الله فنحن لا نسير إلا في ركابك وبأمرك. فتمكث هاجر رضي الله عنها في ذلك الوادي تدافع وحشتها بإيمانها بالله، وتغالب شعور الفقد بالرضا عن أقدار الله، وتعالج خوفها علىٰ وليدها بالثقة في الله وحكمه، فلله تلك الروح الهاجَرية التي تميزت بالصلابة والرقة في آنٍ معـًا، فهي الصلبة أمام وقائع الحياة المضنية، إذ كانت جارية في مصر، ثم أهديت إلىٰ سارة، فترحل بها إلىٰ الشام، ثم تهبها سارة لإبراهيم، ثم تضطرها غيرة سارة إلىٰ مفارقتها، ثم يرتحل بها إبراهيم إلىٰ مكة حيث لا أحد، لا إنس ولا ماء ولا زرع ولا حياة، فتواجه ذلك بصلابة روح وقوة عقل. وهي الروح الرقيقة أمام أمر الله وأمام أمر إبراهيم، فتستجيب للأمر وتثق بعناية الله ولطفه، وتفوض أمرها إليه دون اعتراض.

والذي صنعه إبراهيم عليه السلام لهاجر وولدها هو محض الامتثال لأمر الله فيهما، والدعاء لهما. وهذا أهم ما يقدمه الآباء في بيوتهم.

وعلىٰ إثر هذه الحادثة العظيمة توالت البركات..

- فمنها أنَّ الله تعالىٰ أنبع لهاجر ووليدها ماء زمزم، الذي يختلف عن سائر المياه بركة وغذاء ودوامـًا.

- ومنها تحول مكة من وادٍ مقفر إلىٰ بلدة مأهولة، فقد وفد إليها بعض من قبيلة جرهم وسكنوها وأحيوها، ومنهم تزوج إسماعيل وتعلم العربية[1].

- ومنها بناء البيت الحرام ليكون بعد ذلك موضع حج الناس إلىٰ آخر الزمان، سنة بعد سنة، وما يترتب عليه من وفود الناس إليه وسكنىٰ مكة وإحيائها والاعتناء بها وجلب الأرزاق إليها؛ لتصبح مركز العالم وأم القرىٰ ومحط أنظار الناس ومهوىٰ أفئدتهم.

- ومنها نبوة إسماعيل عليه السلام، فكان عوضاً من الله تعالىٰ لإبراهيم عن جحود قومه وكفرهم.

- وكان من آخر بركاته مبعث محمد ﷺ من ذرية إسماعيل وإحياء هذه الأمة بالإسلام والقرآن. وقد كان إبراهيم يدعو: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[البقرة:١٢٧-١٢٩]. فمن بركة هذه المرأة الصالحة أنْ جعلها الله تعالىٰ أمّاً لأمة الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري، حـ ٣٣٦٨.

وإنْ تعجب فاعجب من توريث الهداية واليقين بالله والثقة بحكمه وقدره، فإنَّ تلكم الصفات الحميدة والأعمال القلبية لم تقتصر علىٰ هاجر وإبراهيم، بل ها هو ابنهما إسماعيل يحققها في سائر حياته بوصفها ثمرة صالحة من ثمار تربية أمه له، فمن ذلك امتثاله لأمر أبيه بتسليم نفسه للذبح، قال تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠١-١٠٢]. فأخبر أباه أنه موطِّنٌ نفسه علىٰ الصبر[1]، وهو لم يزل في حداثة سنه، فالابن الذي قال لأبيه: «افعل ما تؤمر» هو ابن تلك المرأة التي قالت لزوجها حين تركها بوادٍ غير ذي زرع بأمر من الله: «إذن لا يضيعنا».. الأم الصالحة هي صانعة الرجال وغارسة العقيدة في نفوس الأولاد.

العوض الرباني

هل انتهت بركات بيت إبراهيم عند هذا الحد؟ كلا، فإنَّ الله تعالىٰ يقول حكاية عن سارة: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[هود:٧١-٧٣]. أيْ لا تزال رحمته

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٤٧٦.

وإحسانه وبركاته علىٰ أهل هذا البيت، وهي الزيادة من خيره وإحسانه وحلول الخير الإلهي علىٰ العبد[1]. والله تعالىٰ إذا أعطىٰ أكثر وأجزل.

فبعد أنْ ولدت هاجرُ إسماعيلَ بشَّر الله تعالىٰ سارةَ بالولد لصبرها، فأكرمها تعالىٰ - علىٰ كبر سنها وكونها عاقراً - بولادة إسحاق بعد عشرات السنين التي قضتها في ظل زوجها تؤيده وتسكنه وتسنده؛ إذ لا يسند الرجل خير من زوجة صالحة، فهي كهفه الذي يؤوي إليه.

وكانت هذه البشارة في الوقت الذي جاءت فيه الملائكة مؤذنة بإهلاك قوم لوط عليه السلام، قال مجاهد: (وكانت ابنة بضع وتسعين سنة، وكان إبراهيم ابن مائة سنة)[2]. لقد توجت تلك المسيرة الحافلة لهذا البيت المبارك بهذا العوض الجميل، وحملت هذه البشارة ولادة إسحاق ثم ولادة يعقوب بن إسحاق، ويكون ذلك في حياتها فتشتمل البشارة علىٰ حملها، وعلىٰ رؤيتها لحفيدها في حياتها، وهذا يعني أنها ستشهد بعضاً من ذريتها المباركة وعلىٰ نماء ذريتها، قال ابن كثير: (أي ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإنَّ الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه، وقعت البشارة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٢/ ٧٥٩.
(٢) جامع البيان: ١٢/ ٤٧٦.

به وبولده باسم «يعقوب»، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لإبراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبًا إلىٰ عبادة الله في الأرض، فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه علىٰ دينه، لتقر بهم عينه)[1].

وحقًا لقد عاشت سارة حتىٰ رأت يعقوب عليه السلام، وكان من بطنها جُلُّ الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، فيعقوب هو إسرائيل الذي تنتسب إليه بنو إسرائيل، الأمة التي فضلها الله علىٰ العالمين قبل مبعث أمة محمد ﷺ. قال تعالىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾[العنكبوت:٢٧]، وهو والد يوسف عليه السلام، النبي الكريم سليل الأنبياء الكرام. قال السعدي: (ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة علىٰ العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإنَّ الله تعالىٰ جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفىٰ من ولد إبراهيم)[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٥٧٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٤/ ٢٠٤٣.

هكذا يعوض الله تعالىٰ النساء الصالحات لأزواجهن، وما يعقب العسر إلا اليسر، ولا يجلب الصبر علىٰ المشاق إلا الظفر بالكرامة والمغانم، وأيُّ كرامة خير من عقب صالح يدعو لأمه وينالها أجر طاعته، بل أيُّ خير أعظم من نوال رحمة الله وبركاته.

أسرار البيوت

نزلت سورة التحريم تأديبًا وتعليمًا وموعظة وتذكيراً، وببراعة الأسلوب القرآني عالجت السورة أمراً سبق الحديث عنه في القرآن الكريم وَفْقًا لترتيب السور بحسب موضعها في المصحف، وبحسب نزولها علىٰ النبي ﷺ، وهذا الأمر هو حفظ الزوجة للأسرار الزوجية وكتمانها وعدم إفشائها، فقد جاء في سورة النساء تأسيسًا وتقعيداً وفي سورة التحريم معالجة وتطبيقًا.

أما في سورة النساء فإنَّ الحق سبحانه حين وصف كلّاً من الزوجين قال في حق المرأة: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[النساء:٣٤]. وقانتات أيْ مطيعات لأزواجهن، قال ابن عطية: (والقنوت الطاعة، ومعناه لأزواجهن أو لله في أزواجهن)[1]، وحافظات للغيب أيْ حافظات لغيب أزواجهن[2]، ويشمل ذلك حفظ الزوج في فراشه وماله وسره[3]. وأما في سورة التحريم فقد قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ

(١) المحرر الوجيز: ٣/ ١٣٣.
(٢) زاد المسير: ١/ ٤٠٢.
(٣) معالم التنزيل: ٢/ ٢٠٧، والمحرر الوجيز: ٣/ ١٣٣.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٣-٤]. فهي السورة التي نزلت في معاتبة بعض أزواج نبينا ﷺ لأنها أفشت سرَّه إلىٰ صاحبتها، فنبَّه المولىٰ عز وجل زوجات المسلمين إلىٰ هذا الواجب من واجبات الزوجة المسلمة.

مرضاة أزواجك

يدور سبب نزول قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[التحريم:١-٢] حول إحدىٰ قصتين، مع إمكان أنْ تكونا معـًا سببـًا للنزول، كما أشار إلىٰ ذلك الطبري[1].

أما القصة الأولىٰ فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كانت حفصة وعائشة متحابتين، وكانتا زوجتي النبي ﷺ، فذهبت حفصة إلىٰ أبيها فتحدثت عنده، فأرسل النبي ﷺ إلىٰ جاريته، فظلت معه في بيت حفصة - وكان اليوم الذي يأتي فيه عائشة - فرجعت حفصة فوجدتهما في بيتها، فجعلت تنتظر خروجها وغارت غيرة شديدة، فأخرج رسول الله ﷺ جاريته، ودخلت حفصة فقالت: قد رأيت من كان عندك، والله لقد سُؤتني! فقال النبي ﷺ: والله لأرضينك، فإني مُسرٌّ إليك سرّاً فاحفظيه. قالت: ما هو؟ قال: إني أُشهدك أنَّ سُريتي

(١) جامع البيان: ٢٣/ ٨٩.

هذه عليَّ حرام؛ رضاً لك. وكانت حفصة وعائشة تظاهران علىٰ نساء النبي ﷺ، فانطلقت حفصة إلىٰ عائشة، فأسرَّت إليها أنْ أبشري! إنَّ النبي ﷺ قد حَرَّم عليه فتاته، فلما أخبرت بسرِّ النبي ﷺ أظهر الله عز وجل النبي ﷺ، فأنزل الله علىٰ رسوله...)[1].

وأما القصة الثانية فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش ويمكث عندها، فواطيتُ أنا وحفصة عن أيَّتُنا دخل عليها فلْتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير. قال: «لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب ابنة جحش؛ فلن أعود له، وقد حلفتُ: لا تخبري بذلك أحداً»)[2].

فنزلت الآيات تعاتب نبينا ﷺ علىٰ تحريمه ما أحل الله له، سواء كان العسل أم الجارية، وفي الوقت نفسه نزلت تربي أمهاتنا حفصة وعائشة رضي الله عنهما علىٰ أدب الزوجية العظيم، أعني كتمان سر الزوج، ولذلك انتقلت الآيات من خطابهما إلىٰ خطاب عموم المؤمنين، إذ تمثل الأسرار الزوجية مظهراً من مظاهر البيوت التي بنيت علىٰ الزواج السوي، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾[التحريم:٦]. ومن وقاية الأهل من

(١) جامع البيان: ٢٣/ ٨٦.
(٢) أخرجه البخاري، حـ ٤٨٩٧.

النار: تعليمهم الأدب وتربيتهم عليه. وهو ما ذهب إليه علي بن أبي طالب وابن عباس والضحاك والحسن البصري ومقاتل[1].

وفي نهي النبي ﷺ عن تحريم ما أحل الله له ملحظان:

الملحظ الأول: بيان كرم النبي ﷺ وحسن عشرته لأهله، فإنَّ الدافع لما فعله هو ابتغاء مرضات زوجه بعد أنْ غضبت عليه، والقرآن يسجل هذا الخلق الكريم منه ﷺ ليتعلم الناس أنَّ ابتغاء مرضاة الزوجات خُلق فاضل وهدي كريم اتصف به خير الناس سمتاً وأكملهم هدياً وأوفرهم عقلاً وأكثرهم علماً.

والملحظ الثاني: هو التذكير بأهمية الحدود الشرعية في مراعاة مشاعر الزوجة واسترضائها، فليس كل غيرة تصدر من المرأة تدفع إلىٰ هذا النوع من المراعاة والإرضاء، كما يجب ألا تتجاوز هذه المراعاة حدودها الشرعية، قال ابن عاشور: (ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إنْ كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إنْ كانت الأخرىٰ لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام في بعض الأيام. وهذا يومئ إلىٰ ضبط ما يراعىٰ من الغيرة وما لا يراعىٰ)[2].

---

(١) انظر: موسوعة التفسير المأثور: ٢٢/ ٣٨-٤٠.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٣٤٦.

عبودية الكتمان

من أهم معالم الحياة الزوجية إفضاء الرجل إلىٰ زوجه ببعض ما يخفيه ويُسرُّه من أخبار ومشاعر وأحاديث يحصل له بها بعض السكن الذي هو مقصد الزواج الأعظم، فيسكن إلىٰ زوجته ويُسِرُّ إليها بعض شأنه، وذلك من علامات حُسن العشرة وصفاء المودَّة بين الزوجين، إذ يأتمنان بعضهما علىٰ أسرارهما، وهذا جزء من الميثاق المعقود بينهما، وهو محل ثناءٍ عند عقلاء الرجال، وقد أثنىٰ جرير علىٰ زوجه خالدة بعد وفاتها حين رثاها فقال[1]:

كانت مُكارمةَ العشير ولم يكن يخشىٰ غوائلَ أمِّ حرْزةَ جارُ

كانت إذا هجَر الحَليلُ فراشَها خُزِن الحديثُ وعفَّت الأسرارُ

ولا يزال الأبطال الأشداء من الرجال الذين أَلِفوا مواطن البأس والقوة لا يأنف أحدهم أنْ يفضي ببعض سره إلىٰ زوجته، فتحفظ الزوجة سرَّ زوجها وتكتم حديثه ولا تفشي أخباره؛ تعبُّداً لله وفطرة أخلاقية يمليها التذمم والمروءة ويسقيها الحب والمودة، علىٰ الرغم من ميل النفس نحو الحديث عن الزوج والحياة معه. فإذا أُفشي سر الأزواج فكأنما أصيب بناء الزوجية بالشروخ، وضعف السكن الذي به يتم مقصد الزواج، وأصيب الرجل في أمانته، فتقل الرغبة ويخفت الشوق

---

(١) ديوان جرير، ص١٥٤.

ويضطرب العيش، قال ابن عاشور: (وذُكرت حفصة بعنوان «بعض أزواجه» للإشارة إلىٰ أنَّ النبي ﷺ وَضَعَ سرَّه في موضعه، لأنَّ أولىٰ الناس بمعرفة سر الرجل زوجُه. وفي ذلك تعريض بملامها علىٰ إفشاء سره لأنَّ واجب المرأة أنْ تحفظ سر زوجها إذا أمرها بحفظه، أو كان مثله مما يجب حفظه)[1]. فليس شرطاً أنْ يأمرها بحفظ السر، بل ينبغي أنْ تعلم هي أنَّ بعض الأحاديث والأخبار مما لا ينبغي أنْ تُذاع وتشاع.

وهي معادلة عجيبة تدلك علىٰ جمال التكامل الفطري الذي يصنعه الزواج في حياة الناس، فالرجل يرىٰ الحاجة إلىٰ الإسرار، والمرأة يتوجب عليها الكتمان وتحمُّل مسؤولية تلك الأسرار.

وحين أراد الله تعالىٰ تأديب الأمة بهذا الأدب المهم قدَّر حدوث الواقعتين اللتين حدثتا في بيت النبي ﷺ ليكون أسوة لغيره من الأمة، ولتكون زوجاته أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أسوة لغيرهن من زوجات المسلمين، وهذا من تربية الله لهذه الأمة فضلاً منه وامتناناً. فالنبي ﷺ أسر أمَّنا حفصة رضي الله عنها حديثاً، واستأمنها عليه ألَّا تفشيه لأحد، فحدثت به عائشة لأنها كانت صاحبتها وصفيتها من بين أزواج النبي ﷺ، وإنما أرادت أنْ تبشرها بنيلهما ما أرادتا من تنفير النبي ﷺ من وطء مارية أو المكوث عند زينب لشرب العسل، وكانت تعتقد أنَّ عائشة لن تخبر أحداً بذلك، ولقد كتمت عائشة السر رضي

(١) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٣٥٢.

الله عنها، لكنها رضيت بأنْ يُفشىٰ سرُّ زوجها ﷺ وأنْ يكون لديها علم به، والمقصود أنَّ حفصة كانت واثقة من عدم خروج سر النبي ﷺ من دائرة بيتها وبيت عائشة.

ذلك، وقد أطلع الله تعالىٰ نبيه ﷺ علىٰ ذلك وبيَّن عدم رضاه عن هذا الصنيع، إذ لا ينبغي أنْ تؤذي الزوجة زوجها ولا أنْ تفشي سره ولا أنْ تُلجئه إلىٰ فعل ما لا يحسن لمجرد رغباتها ولا أنْ تكون سببًا في حرمانه مما يحب من المحبوبات المشروعة.

وقد ذكَّر الله تعالىٰ نساء المؤمنين بأنَّ إفشاء السر لا يليق بالمؤمنات، وضرب لذلك مثلاً في سياق هذه المعاتبة: زوجة نوح وزوجة ولوط، قال تعالىٰ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم:١٠]. فإنهما وإنْ كانتا في بيتين كريمين إلا أنه قد وقع منهما إفشاء لسر زوجيهما، قال ابن عباس: (كانت خيانتهما أنهما كانتا علىٰ غير دينهما، فكانت امرأة نوح تُطْلِعُ علىٰ سر نوح، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، فكان ذلك من أمرها؛ وأما امرأة لوط فكانت إذا ضاف لوطًا أحدٌ خبَّرتْ به أهل المدينة ممن يعمل السوء، فلم يغنيا عنهما من الله شيئًا)[1].

(١) جامع البيان: ٢٣/ ١١٢.

الكيد المرفوض

في السياق ذاته يحذِّر المولىٰ سبحانه من إلحاق الأذىٰ بالزوج وتعكير صفو حياته، فقد كان النبي ﷺ يحب أنْ يأتي مارية ويحب أنْ يشرب العسل، فلما حرَّمهما - أو أحدهما - علىٰ نفسه علىٰ الوصف المذكور كان ذلك مما يكرهه ويؤذيه، وقد تعمد الزوجة إلىٰ تحقيق مرادها من الاستفراد بزوجها أو استجلاب دلاله لها أو نحو ذلك مما تكيده النساء ويعرفن مسالكه، دون أنْ تعبأ بمزاج زوجها وصفو عيشه، فنبَّه الله تعالىٰ حفصة وعائشة ونساء المؤمنين إلىٰ الإثم المترتب علىٰ هذه الأفعال، فقال تعالىٰ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[التحريم:٤].

والصوغ: الميل[1]. والمعنىٰ: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وألَّا يَشْقُقن عليه[2]. وقال ابن زيد: (سرَّهما أنْ يجتنب رسول الله ﷺ جاريته، وذلك لهما موافق)[3]. أيْ يوافق رغباتهما، فتأمل حقيقة الميل الذي وقع منهما، فإنَّ بعض النساء تراه أمراً هينًا وأنه لا بأس أنْ تفشي سراً أو أنْ تظفر بزوجها مقابل إبعاده عن بعض ما تحبه نفسه، بينما هو أمر عظيم عند الله تعالىٰ، قال مجاهد: (كنا نرىٰ أنَّ قوله: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ شيءٌ هين، حتىٰ سمعتُ قراءة ابن

(١) المفردات للراغب، ص٣١٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٤/ ١٨٥١.
(٣) جامع البيان: ٢٣/ ٩٤.

مسعود: إنْ تتوبا إلىٰ الله فقد زاغت قلوبكما)، وبمعنىٰ الزيغ قال الضحاك وسفيان[1]. ولو لم يكن عظيماً لما أمر الله تعالىٰ بالتوبة منه، فهو خطيئة وإثم في الحياة الزوجية، وقوام الحياة الزوجية في تلمس مراضي الله، قال ابن عاشور: (القصد منه الموعظة والتحذير والإرشاد إلىٰ رأب ما انثلم من واجبها نحو زوجها. وإذْ قد كان ذلك إثماً - لأنه إضاعة لحقوق الزوج وخاصة بإفشاء سره - ذكَّرها بواجب التوبة منه. وفيه إيماء إلىٰ أنَّ فيما فعلتاه انحرافاً عن أدب المعاشرة الذي أمر الله به، وأنَّ عليهما أنْ تتوبا مما صنعتاه؛ ليقع بذلك صلاحُ ما فسد من قلوبهما)[2].

وهكذا تتربىٰ نساء الأمة المسلمة علىٰ آداب العشرة الزوجية، فيحتسبن لله القيام بالحقوق والآداب ليصرن بذلك من خير النساء، فإنَّ الحق سبحانه حين وصف الزوجات الخيرات قال: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾[التحريم:٥]، وجعل قنوت الزوجة لزوجها من قنوتها لربها، فإنَّ القنوت هو الطاعة كما سبق بيانه، ولا فرق في الخيرية بين بكر وثيب إلا بأداء حق الله وحق الزوج والتوبة من الآثام والخطايا المتعلقة بحق الله والمتعلقة بحق الزوج، والاستقامة علىٰ أمر الله تعالىٰ، والمقومات الجسدية للزواج لا تقرِّب المرأة إلىٰ الله تعالىٰ، إنما يقربها العمل الصالح والخلق الحسن.

---

(١) جامع البيان: ٢٣/ ٩٣.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٨/ ٣٥٧.

فأين من صلاح الزوجة إذاعة سر زوجها أو إفشاء أخباره؟

وأين من صلاح الزوجة مجالس النساء وما يبثثنه من شكوىٰ الزوج وغيبته وربما بهته؟

وأين من صلاح الزوجة الاسترسال في الحديث عن أخطاء الزوج في برامج الاستشارات؟

وأين من صلاح الزوجة المكر بالأزواج وإيقاعهم في النفرة مما هو حلال لهم؟

والحق أنَّ نساء النبي ﷺ كن علىٰ درجة عالية في الخيرية والصلاح، واستدل أهل العلم علىٰ ذلك بأنَّ النبي ﷺ أمسكهن ولم يطلقهن، ولو طلقهن لأبدله الله خيراً منهن كما في الآية لأنه خطأ صدر عن بعضهن دون قصد لمآلاته، بل استدلوا بذلك علىٰ أنهن خير نساء العالم، قال السعدي: (فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلىٰ رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصِرن أفضلَ نساء المؤمنين، وفي هذا دليل علىٰ أنَّ الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلىٰ الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دلَّ علىٰ أنهن خير النساء وأكملهن)[1].
وباب التوبة دائماً مفتوح ومشرع لمن أرادت الخيرية والصلاح.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٤/ ١٨٥٢.

امتحان البيوت

في هدأة من الزمان، وبعد ما فتح الله تعالىٰ علىٰ نبيه ﷺ وأصحابه من خيرات بني النضير وبني قريظة، كما يبدو من سورة الأحزاب، وبعدما أَمِنَت المدينة من غزو قريش والعرب، وقد فرضت المدينة قوَّتها في الجزيرة العربية، واغتنىٰ المهاجرون بعد الفقر، وأَمِن الناس بعد الخوف والترقب، وتوسعت البيوت ولانت الفُرُش، فإذا الناس مجتمعون في مسجد رسول الله ﷺ يبكون حول منبره، ينتظرونه فلا يخرج إليهم ولا يصلي بهم، ويقفون علىٰ بابه فلا يأذن لهم ولا يكلمهم[1]، فتضطرب المدينة بساكنيها، وتعود حالة القلق إلىٰ أشد ما كانت عليه أو أكثر، حتىٰ لقد ظن عمر بن الخطاب ﷺ أنَّ سبب هذا الاضطراب والقلق هو غزو الغساسنة للمدينة، فيقول له صاحبه: «بل أعظم من ذلك! طلَّق رسولُ الله ﷺ نساءَه».

هزَّة البيت النبوي

اهتزت المدينة لِمَا اعترىٰ البيت النبوي من هزة كانت سببًا في نزول آية التخيير، وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا

(١) انظر: جامع البيان: ١٩/ ٨٥، الطبقات الكبير: ١٠/ ١٧١، وذكر ابن حبان في كتابه «السيرة النبوية وأخبار الخلفاء» هذه الحادثة السنة التاسعة من الهجرة: ١/ ٣٦٠، وذِكر غسان في الرواية يدل علىٰ تأخُّرها في السيرة.

﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الأحزاب:٢٨-٢٩]. ذلك أنَّ أزواجه ﷺ قمن ببعض الأمور التي تسوؤه من غيرتهن من بعضهن والكيد لأجل ذلك؛ كما في قصة (التحريم) السابقة، وطلبن الزيادة في الكسوة والنفقة تبعًا لتوسع الحال في المدينة ولدىٰ الصحابة بوجه عام، وذلك بعد المغانم التي تحصَّل عليها المسلمون من انتصاراتهم، وقد كان النبي ﷺ لم يتوسع في النفقة والبيت كما فعل الناس مع قدرته علىٰ ذلك، وإنما رضي أنْ يبقىٰ علىٰ حاله التي كان عليها من قبل، وهي الحال التي لا يزال الفقراء عليها من قلة ذات اليد؛ زهداً في الدنيا واعتناءً بأمر الآخرة، قال أبو حيان: (ولما نصر الله نبيه وفرَّق عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله، بنات كسرىٰ وقيصر في الحلي والحلل والإماء والخول، ونحن علىٰ ما تراه من الفاقة والضيق. وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال)[1].

ويروي الطبري[2] عن أبي الزبير أنَّ رسول الله ﷺ لم يخرُج صلواتٍ، فقالوا: ما شأنه؟ فقال عمر: إنْ شئتم لأَعلمنَّ لكم شأنه؛ فأتىٰ النبيَ ﷺ فجعل يتكلم ويرفع صوته، حتىٰ أذن له. قال: فجعلت

(١) البحر المحيط: ٨/ ٤٧١.
(٢) جامع البيان: ١٩/ ٨٥.

أقول في نفسي: أيُّ شيء أكلم به رسول الله ﷺ لعله يضحك، أو كلمة نحوها؟ فقلت: يا رسول الله، لو رأيت فلانة وسألتني النفقة فصككتها صكة، فقال ﷺ: «ذلك حبسني عنكم». قال: فأتىٰ حفصة، فقال: لا تسألي رسول الله ﷺ شيئًا، ما كانت لك من حاجة فإليَّ؛ ثم تتبع نساء النبي ﷺ فجعل يكلمهن، فقال لعائشة: أيغرك أنك امرأة حسناء، وأنَّ زوجك يحبك؟ لتنتهين أو لينزلن فيك القرآن قال: فقالت أم سلمة: يا بن الخطاب، أو ما بقي لك إلا أنْ تدخل بين رسول الله ﷺ وبين نسائه، ولن تسأل المرأة إلا لزوجها قال: ونزل القرآن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾[الأحزاب:٢٨-٢٩]. قال: فبدأ بعائشة فخيرها، وقرأ عليها القرآن، فقالت: هل بدأتَ بأحد من نسائك قبلي؟ قال: «لا»، قالت: فإني أختار الله ورسوله والدار الآخرة، ولا تخبرهن بذلك؛ قال: ثم تتبعهن فجعل يخيرهن ويقرأ عليهن القرآن، ويخبرهن بما صنعت عائشة، فتتابعن علىٰ ذلك.

وللقارئ أنْ يتأمل أثر تلك المطالبات ومحاولة الاستئثار علىٰ نفس رسول الله ﷺ ومزاجه، فإنَّ الزوجة ليست كسائر الناس في تأثيرها علىٰ زوجها، فتستطيع أنْ تكون سببًا في قيامه كالجبل شامخًا، وتستطيع كذلك أنْ تطفئه حتىٰ يصير ظلمة في غياهب

الليل. وقد جعل الله تعالىٰ الزوجة سكنـًا للرجل في موحش حياته كما قال جل شأنه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾[الروم:٢١] فإذا لم يجد السكن في بيته وعند زوجه فإنَّ الحياة كلها موحشة مكفهرة، فلا سبيل بعد ذلك إلا الانـزواء والانقباض والانكفاء.

وقد لا تدرك الزوجة أهمية كونها سكنَ الـزوج وقِـوام البيت فربما عبثت بذلك فتسببت باضطراب البيوت ونقص الدين وضعف الفاعلية في الحياة العامة دون أنْ تشعر.

ولقد اعتزل رسول الله ﷺ نساءه، بل اعتزل المسجد والناس، علىٰ إثر خفوت روحه وانطفاء وهجه... هكذا تمزَّق سعادة البيت الزوجي وبهجته. وفي رواية ابن عباس ﷺ أنَّ عمر قال: (وكنا قد تحدثنا أنَّ غسان تنعل الخيل لتغزونا. قال: فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فرجع إليَّ عِشاءً فضرب بابي ضربـًا شديداً وقال: أنائم هو؟ ففزعت فخرجت إليه فقال: قد حدث اليوم أمر عظيم. قال: قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم من ذلك وأطول؛ طلق رسول الله نساءه. فقلت: خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظن هذا يوشك أنْ يكون. فجمعت عليَّ ثيابي، فصليت مع رسول الله الفجر، فدخل رسول الله مشربة له فاعتزل فيها. قال: ودخلت علىٰ حفصة فإذا هي تبكي فقلت: ما يبكيك؟ ألم أكن قد حدثتك هذا؟ طلقكن رسول

الله؟ فقالت: لا أدري ما أقول، هو ذا معتزل في هذه المشربة. قال: فخرجت فجئت المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم. قال: فجلست معهم ثم غلبني ما أجد فجئت المشربة التي فيها رسول الله...)[1].

توبةٌ في بيت الزوجية

بعد أنْ قرأ النبي ﷺ آية التخيير علىٰ نسائه، وخيرهن بين البقاء معه أزواجاً في ظل حياة متزهدة وثواب هذا الخيار هو الفوز بالدار الآخرة، وبين الخروج من عصمته والطلاق مع إعطائهن حظهن من المال والزينة، بعد ذلك اجتمع اختيارهن للعيش مع رسول الله ﷺ والصبر علىٰ شظف العيش معه ابتغاء ثواب الله والدار الآخرة وألَّا يطلبنه متاع الدنيا وزينتها. فكان هذا امتحاناً عظيماً وكان اختيارهن دليلاً علىٰ صلاحهن وخيريَّتهن وكمال عقولهن، وبذلك تنتهي مشكلة المطالبات بالتوسعة لتتم حكمة الله، وفي ذلك يقول السعدي: (أراد الله أنْ يسهل الأمر علىٰ رسوله، وأنْ يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كلَّ أمرٍ ينقص أجرهن)[2].

ومما تستفيده بيوت المسلمين من هذه الحادثة أنْ تنظر إلىٰ ما يقع فيها من المشكلات والأزمات نظرة العارف بحكمة الله ورحمته ولطفه، فتجعل تلك المشكلات والأزمات بداية لانطلاقة إيمانية

(١) الطبقات الكبير: ١٠/ ١٧١.
(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٣٨١.

داخل البيت، وتجديداً وتحسينًا لحال الزوجية، وفرصة للإصلاح الشامل للحياة الخاصة، والإسلام يربي أهله علىٰ تلمُّس العطايا والمنح في ثنايا المحن والأزمات.

ولقد فرح النبي ﷺ بهذا الاختيار من نسائه، فقد ذكرت عائشة أنَّ النبي ﷺ لما نزل إلىٰ نسائه أُمر أنْ يخيرهن، فدخل عليَّ فقال: «سأذكر لك أمراً ولا تعجلي حتىٰ تستشيري أباك»، فقلت: وما هو يا نبي الله؟ قال: «إني أُمرت أنْ أخيركن»، وتلا عليها آية التخيير إلىٰ آخر الآيتين؛ قالت: قلت: وما الذي تقول: لا تعجلي حتىٰ تستشيري أباك! فإني أختار الله ورسوله. فسُرَّ بذلك، وعرض علىٰ نسائه، فتتابعن كلهن، فاخترن الله ورسوله[1]. وانقضت هذه المشكلات التي امتدت فترة من الزمان بالإبقاء علىٰ ما يريده رسول الله ﷺ من قلة ذات اليد، وعلىٰ اتخاذ نسائه قرار البقاء معه علىٰ ما يريده هو والصبر علىٰ ذلك، وإلىٰ أنْ يتوفاه الله، فأعقب ذلك ثناء الله عليهن في كتابه وإكرامه تعالىٰ لهن في الدنيا وادخاره لثوابهن في الآخرة.

وعوضهن الله في الدنيا بمنع النبي ﷺ من تطليقهن والزواج عليهن، وادخر لهن في الآخرة الخلود في زوجية محمد ﷺ في أعلىٰ الجنة. قال تعالىٰ: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾

(١) جامع البيان: ١٩/ ٨٩.

[الأحزاب:٥٢]. قال السعدي: (هذا شكر من الله - الذي لم يزل شكوراً - لزوجات رسوله رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أنْ رحمهن، وقصَرَ رسولَه عليهن، فقال: لا يحل لك النساء من بعد زوجاتك الموجودات ولا أن تبدل بهن من أزواج، أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلها، فحصل بهذا أمنُهن من الضرائر ومن الطلاق، لأنَّ الله قضىٰ أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: حسن غيرهن، فلا يحللن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: السراري، فذلك جائز لك، لأنَّ المملوكات في كراهة الزوجات لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات)[1].

الآخرة بوصلة السعادة

حين اختارت أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - الله ورسوله والدار الآخرة علىٰ متاع الدنيا وزينتها أمرهن الله بعدد من الوصايا التي بها تصلح أحوالهن في حياتهن الزوجية، وهي وصايا عظيمة يتوجب علىٰ كل زوجة أنْ تمتثلها في نفسها إذا كانت تبتغي الدار الآخرة وما أعده الله فيها من حُسن الثواب، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ

(١) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٣٩٧.

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٤].

فالوصية الأولىٰ هي عدم الخضوع بالقول عند الرجال عدا الزوج، والاكتفاء بالمعروف منه. فأما الخضوع بالقول فهو ترقيق الكلام عند مخاطبة الرجال[١]، وهو ممنوع لأنه يُطمِع الرجل الذي في قلبه مرض الشهوة، وأما المعروف من القول فهو الذي ليس باللين الخاضع ولا بالغليظ الجاف، ومضمونه لا تنكره الشريعة ولا النفوس[٢].

وفي عصرٍ تيسر فيه الحديث بين الرجال والنساء، تحتاج المرأة إلىٰ ضبط مشاعرها ولسانها أكثر وأكثر، لتسلم هي من مغبة الخضوع، وليسلم الرجل من مرض الشهوة، سواء كان ذلك مباشرة أم من خلال شبكات التواصل الإلكترونية أم من خلال أجهزة الاتصالات، فإنَّ الخضوع بالقول مما تُنهىٰ عنه المرأة في حضرة الرجال لأنه لا ينبغي أنْ يكون خضوع القول إلا مع زوجها، قال ابن كثير: (أي لا تخاطب المرأة الأجانبَ كما تخاطب زوجها)[٣]. فهي تُنهىٰ عنه أمامهم كما هو مستحب لها عند زوجها، لأنَّ من طبيعة الخضوع بالقول استمالة

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ١٨٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٣٨٤، المحرر الوجيز: ٨/ ١٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ١٨٢.

قلب الزوج وإيناسه، فكان حسنًا في موضعٍ وسيئًا في غير هذا الموضع.

وفطرة المرأة تدعوها إلىٰ الخضوع بالقول، والإسلام يوافق هذه الفطرة ويوجهها في المسار الصحيح المفيد، قال البقاعي: (اللين في كلام النساء خلقٌ لهن لا تكلُّف فيه، فأُريد من نساء النبي ﷺ التكلف الإتيان بضده)[1].

والوصية الثانية هي القرار في البيوت، أي لزومها وعدم الخروج منها إلا للحاجة كما قال القرطبي: (وإنْ كان الخطاب لنساء النبي ﷺ فقد دخل غيرهن فيه بالمعنىٰ. هذا لو لم يَرِد دليل يخص جميع النساء؛ كيف والشريعة طافحة بلزوم النساء بيوتهن، والانكفاف عن الخروج منها إلا لضرورة، علىٰ ما تقدم في غير موضع، فأمر الله تعالىٰ نساء النبي ﷺ بملازمة بيوتهن، وخاطبهن بذلك تشريفًا لهن، ونهاهن عن التبرج، وأعلم أنه فِعْل الجاهلية الأولىٰ)[2]. وذلك لِمَا فيه من جلبٍ للمصالح ودرءٍ للمفاسد، فإنَّ قرار الزوجة في بيتها فيه سكن للزوج ورعاية للأولاد وعناية بالبيت ونضرة في وجهها واعتناء بزينتها واستثمار للوقت في عبادة ربها. وفي الخروج من البيت تفريط في حق زوجها وحق أولادها، وإهمال لبيتها وهدر لنشاطها

---

(١) نظم الدرر: ٦/ ١٠١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٤/ ١١٧.

وإتلاف لقوَّتها وخفوت لنضرتها، وتعرُّضٌ للرجال وجلب للمعصية واقتراب من حبائلها، ولذلك كانت تتمة الآية في النهي عن التبرج، وهو الاختلاط بالرجال والمشي بين يديهم وإظهار بعض الزينة والمحاسن[1].

والوصية الثالثة هي لزوم طريق الاستقامة وطاعة الله ورسوله ﷺ، وإقامة الفرائض لا سيما الصلاة والزكاة. وخص الصلاة والزكاة بالأمر ثم جاء الأمر عامًا بالطاعة لأنَّ هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات، فمن اعتنىٰ بهما حق العناية جرتاه إلىٰ ما وراءهما، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[العنكبوت:٤٥][2].

والوصية الرابعة تلاوة آيات الله وسنة رسوله ﷺ ودراستها، قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤]، قال السعدي: (يشمل ذكر لفظه بتلاوته، وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه واستخراج أحكامه وحِكَمه، وذكر العمل به وتأويله)[3]. فهنا ثلاثة أحوال للذِّكر:

أولها: تلاوة القرآن والسنة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/ ١٨٣، المحرر الوجيز: ٨/ ١١.
(٢) التحرير والتنوير: ٢٢/ ١٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن: ٣/ ١٣٨٥.

وثانيها: النظر في معاني القرآن والسنة، والتفكر فيها وما تتضمنه من أحكام.

وثالثها: ذكر العمل المترتب علىٰ تلك الآيات والأحاديث وكيف يمكن تطبيقه في الواقع، ونحو ذلك وهو دراسة أحكام الشريعة وفقهها.

وبهذه الوصايا الأربعة تتشكل بوصلة الزوجة الصالحة والمرأة الطيبة التي تريد الله ورسوله والدار الآخرة: ضبط ميزان الكلام عند الرجال الأجانب، والقرار في البيت، ولزوم طريق الاستقامة، وتلاوة آيات القرآن والسنة وفهمها ودراستها والنظر في أحكام الشريعة بقصد العمل.

وهكذا نفهم أنَّ بوصلة السعادة لا تستقيم إلا إذا قامت علىٰ النظر في اليوم الآخر وما أعد الله فيه للمحسنات من الأجور والثواب.

الشيطان والمهام التخريبية

أليس للشيطان دور تخريبي في هذه الحادثة؟

بلىٰ، كيف لا يكون له دور تخريبي وهو الذي يعدُّ التفريق بين الزوجين من أعظم الأعمال التي يحاسب بها جنوده. عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنَّ إبليس يضع عرشه علىٰ الماء، ثم يبعث سراياه، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم

فيقول: فعلتُ كذا وكذا، فيقول: ما صنعتَ شيئًا، قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتىٰ فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول: نعم أنت. قال الأعمش: أراه قال: فيلتزمه»[1]. وكثير من المشكلات الزوجية تنشأ من صغائر الأمور، فيوقد الشيطان تحتها حتىٰ تنضج وتتحول إلىٰ فرقة.

ولكن الشيطان لا يلقي حبائله جزافًا بلا تفنن وإمعان، وإنما يزينها بالمبررات العقلية والحجج المنطقية، فتكون فتنته عبارة عن مناقشات وجدال بين الزوجين وسوء ظن وعتاب حتىٰ يتم ما يريده، ونساء النبي ﷺ إنما طلبن التوسع في النفقة بعد أنْ فتح الله علىٰ المسلمين وأورثهم أراضي اليهود وأموالهم ونخيلهم وذهبهم ونقودهم، فنال الصحابة منها ما نالهم، ووسعوا علىٰ أنفسهم وأهليهم تبعًا لذلك بعد سنوات من المسغبة والفقر، فأرادت نساء النبي ﷺ أنْ يكون لهن حظ كما لسائر النساء في المدينة، كيف والنبي ﷺ له خُمس الفيء مما أفاءه الله عليه من بني النضير، فكان المتوقع أنْ يكون لهن نصيب وافر من الذهب والزينة والمال وسعة المنزل... أو هكذا يلقي الشيطان حبائله في نفوس النساء، فيسخطن حياتهن مع أزواجهن؛ فكيف إذا كان هذا الزوج يتجه قلبه نحو الآخرة، بل كيف إذا كان هذا الزوج هو محمد ﷺ الموعود بأعلىٰ درجات النعيم في الجنة؟

---

(١) أخرجه مسلم، حـ ٢٨١٤.

لذلك وجب علىٰ الأزواج من الرجال والنساء الحذر من الشيطان والاستعاذة الدائمة من نزغاته ومن همزه ونفخه ونفثه. والقرآن يحذرنا من هذه المهام التخريبية لإبليس، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾. والرجس هنا هو الشيطان وعمله، ذكر ذلك ابن عباس[1] وعبد الرحمن بن زيد[2]. والله تعالىٰ يذكر للنساء أنَّ مراده من هذه الوصايا تطهير النساء من الدنس والشرور وحفظهن من أذىٰ الشيطان وحبائله، فإنَّ الشيطان هو الذي يتسبب في الشقاق بين الزوجين، وهو الذي يتسبب في تبرج النساء واختلاطهن، فإذا لم يفلح في التسبب إلىٰ ذلك بوساوسه عمل أعمالاً أخرىٰ لأجل ذلك، حتىٰ لو أدىٰ به الأمر إلىٰ أنْ يقوم بأعمال محسوسة ملموسة ليدفع النساء إلىٰ الشر دفعًا، فلأجل ذلك أوصىٰ الله تعالىٰ نساء النبي ﷺ ونساء الأمة من بعدهن بتلك الوصايا الأربعة لما فيها من حفظٍ لهن عن الشرور وعن كيد الشيطان، ولما فيها من ذكر الله وطاعته الطاردة للشيطان والمذهبة لعمله والجالبة للطمأنينة والهناء.

وقد روىٰ عكرمة عن ابن عباس ﷺ قال: تلا هذه الآية: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣]، قال: (كان فيما بين

---

(١) معالم التنزيل: ٣/ ٥٦٢.

(٢) جامع البيان: ١٩/ ١٠١.

نوح وإدريس، وكانت ألف سنة؛ وإنَّ بطنين من ولد آدم كان أحدهما يسكن السهل والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صِباحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صِباحاً وفي الرجال دمامة، وإنَّ إبليس أتىٰ رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فأجَّر نفسه منه، وكان يخدمه، واتخذ إبليس شيئاً مثل ذلك الذي يزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع مثله، فبلغ ذلك من حولهم، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فيتبرج الرجال للنساء، ويتزين النساء للرجال، وإنَّ رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم ذلك، فرأىٰ النساء، فأتىٰ أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهن، فنزلوا معهن، فظهرت الفاحشة فيهن، فهو قول الله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب:٣٣])[1].

إنَّ الشيطان لا يألو جهداً لإقناع المرأة بخروجها من بيتها واختلاطها بالرجال وتبرجها بين يديهم، فتارة يبذر فيها دافع الحاجة إلىٰ العمل خارج المنزل للحصول علىٰ المال، وتارة يبذر فيها دافع الحاجة إلىٰ التفسُّح والتنزه للاستجمام والاسترواح من عناء أعمال البيت وغير البيت، وتارة يبذر فيها دافع الحاجة إلىٰ التسوق وشراء ما يلزم البيت، وتارة يبذر فيها دافع الشعور بالذات والاستقلال والحرية، وقد تكون بادئ الأمر منطقية ولا تؤثر سلباً، ولا يزال يبذر

(١) جامع البيان: ١٩/ ٩٨.

بذوره ويعين علىٰ دفع المرأة إلىٰ ترك وظائفها المنزلية التي أوصىٰ الله بها إلىٰ القيام بما يمليه عليها من أقوال وأفعال تجلب الشر لها ولبيتها، ولا يزال يبذر بذوره ويعين علىٰ نقل الزوجة من دائرة الرضا والسعادة الزوجية إلىٰ مسارب السخط والتأفف والشعور بالنقص في الذات والمال ليهدم بيتها ويفرق بينها وبين زوجها. ولو كان الأمر هينـًا لما حصل في أحسن بيوت العالم وأجلِّها وأشرفها وأخيرها؛ أعني بيت النبي ﷺ وزوجاته، الأمر الذي كان من تأثيره اعتزال النبي ﷺ بيته والمسجد والناس.

وإنَّ ضعف بيوت المسلمين وما يتسرب إلىٰ الأزواج رجالاً ونساء من الوهن والسخط والشحناء لا يسلم من عمل الشيطان وألاعيبه وحبائله، فأين وصايا الله تعالىٰ الأربعة للنساء من ذلك كله؟ وهل ثمة اعتناء بها أصلاً؟

ولست أقصد من هذا تأنيبـًا، وإنما أقصد إسداء النصح لنساء المسلمين ليتعرفوا طريقة القرآن في معالجة قضايا اجتماعية كبرىٰ تتعلق بأكثر بيوت المسلمين فيهتدوا بها، ولا بد في الأمة من وجود بيوت صالحة بنسائها يراعين وصية الله لهن، ليكن بذلك نواة البيوت الطيبة الهانئة والمطمئنة، فإنَّ هذه البيوت هي أصل في قوة الأمة وصلاح الدين وإماتة المنكرات.

مجالس النساء

اجتماع النساء والالتقاء ببعضهن عادة قديمة حديثة، جرت الأعراف والعادات بها، سواء انعقدت هذه المجالس بمناسبة أو بغير مناسبة، ويجري فيها الحديث بكل شجونه وشؤونه، ويكثر فيها الكلام والقيل والقال.

وهنا وقفة مهمة، اكتسبت أهميتها من تفسير عدد من الظواهر والشكاوىٰ، إذ يمكن لهذه المجالس أنْ تكون لَبِنة في إصلاح الأحوال الاجتماعية أو معاول هدم لها. وهنا يأتي السؤال:

كيف يقضي النساء الوقت في مجالسهن؟

ونظرت في قول المولىٰ تبارك وتعالىٰ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤]، فوجدت وصية الله تعالىٰ لأمهات المؤمنين - بعد ما حدث منهن في مسألة طلب التوسع في النفقة - بأنْ يكون من وظائفهن في بيوتهن: ذكر الله وتلاوة كتابه وتعلم أحكامه وتعلم السنة، لأنَّ ذلك يعصم بإذن الله من وقوع الإخفاقات والإشكالات، أو يخفف منها، أو يعالجها بعد وقوعها.

ووصية الله تعالىٰ إذا قيلت لأمهات المؤمنين فإنَّ نساء المؤمنين مخاطَبات بها من باب أَوْلىٰ. والمأمول أنْ تعيَ النساء مسؤوليتهن في

إحياء البيوت بذكر الله والصلاة، والقرآن والسنة وما فيهما من العلم والدين، فإنَّ الله لم يأمر نبيه ﷺ بأنْ يقيمها لهن، بل أمرهن أنْ يقمن بذلك بأنفسهن.

ما علىٰ النساء إذا اجتمعن في مجلسٍ أنْ يتدارسن كتاب الله بينهن، والنبي ﷺ يقول: «ما من قوم يقومون من مجلسٍ لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة»[1]. ويقول ﷺ أيضـًا: «ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، ونزلت عليهم السكينة، وتغشَّتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»[2].

وما علىٰ النساء إذا اجتمعن في مجلسٍ أنْ يتذاكرن آداب الزوجية الواجبة والمستحبة، ابتغاء ما عند الله مما أعده للزوجة الصالحة، وأنْ يتدارسن سيرة القدوات من نساء الأمة كأمهات المؤمنين ومريم بنت عمران وأمها وآسية بنت مزاحم وأم سليم وسائر زوجات المهاجرين والأنصار، بل وكثير من نساء زماننا هذا الذي تغلبت فيه نساء علىٰ كيد الشيطان فكُن صالحات قانتات مريدات وجه الله تعالىٰ والدار الآخرة.

وما علىٰ النساء إذا اجتمعن في مجلسٍ أنْ يتذاكرن مهارات التربية الإسلامية وطرائقها ووسائلها، وأنْ يناقشن تحديات التربية المعاصرة بوعي وعلم ابتغاء الوصول بأولادهن إلىٰ مصاف الصالحين.

---

(١) أخرجه أبو داود، حـ ٤٨٥٥.

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق، حـ ٩٤٤.

وما علىٰ النساء إذا اجتمعن في مجلسٍ أنْ يوجهن دعوة إلىٰ طالبة علم أو معلمة قرآن، فيكون لهن نصيب من علمها وتوجيهها وبركتها؛ ولو أدىٰ ذلك إلىٰ أنْ يجعلن لها جُعلاً من المال.

يا نساء المؤمنين! إصلاح حالكن ومعاشكن ونجاحكن في الحياة الزوجية وتربية الأولاد يبدأ من هذه الوصية الربانية: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الأحزاب:٣٤].

المراجع

- **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ.
- **أساطير إغريقية**، عبد المعطي الشعراوي، مكتبة الإنجلو المصرية، ٢٠٠٥م.
- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ابن عبد البر القرطبي، ت: علي محمد البجاوي، دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ.
- **الأسرة في الغرب**، د. خديجة كرار الشيخ الطيب بدر، دار الفكر، ط٢، ١٤٤١هـ.
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، الحافظ ابن حجر، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.
- **البحر المحيط في التفسير**، أبو حيان الأندلسي، ت: صدقي محمد جميل، دار الفكر، ١٤٢٠هـ.

- **بدائع الفوائد**، ابن قيم الجوزية، ت: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٥هـ.
- **البداية والنهاية**، ابن كثير، ت: د. محيي الدين ديب مستو، ود. علي أبو زيد، دار ابن كثير، ط٥، ١٤٣٩هـ.
- **تاريخ الأمم والملوك**، ابن جرير الطبري، ت: إياد بن عبد اللطيف القيسي، دار ابن حزم، ١٤٣٥هـ.
- **تفسير التحرير والتنوير**، الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية، ١٩٨٤م.
- **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، ت: أبو إسحاق الحويني وأ.د. حكمت بشير ياسين، دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤٤٠هـ.
- **تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.
- **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتناء: سعد بن فواز الصميل، دار ابن الجوزي، ط٤، ١٤٣٥هـ.
- **الجامع لأحكام القرآن**، القرطبي، دار الكتب العلمية.
- **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ابن جرير الطبري، ت: الدكتور

عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٢هـ.

- **حراسة الفضيلة**، بكر أبو زيد، دار عالم الفوائد، ط٦، ١٤٢١هـ.
- **الداء والدواء**، ابن قيم الجوزية، ت: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٩هـ.
- **ديوان جرير** بشرح محمد بن حبيب، ت: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، ط٣.
- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، ابن قيم الجوزية، ت: محيي الدين ديب مستو، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٨هـ.
- **الرسالة**، الإمام الشافعي، ت: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي.
- **زاد المسير في علم التفسير**، أبو الفرج ابن الجوزي، عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٢هـ.
- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن قيم الجوزية، ت: محمد أجمل الإصلاحي، دار عالم الفوائد، ط٢، ١٤٤٠هـ.
- **الزهد والرقائق**، عبد الله بن المبارك، ت: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية.

- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٥هـ.
- **سنن الترمذي**، ت: أحمد محمد شاكر، مكتبة الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ.
- **سنن أبي داود**، ت: عصام موسىٰ هادي، دار الصديق للنشر، ط٢، ١٤٤٢هـ.
- **السنن الكبرىٰ**، أبو بكر البيهقي، ت: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، ط١، ١٤٣٢هـ.
- **سنن ابن ماجه**، ت: الشيخ خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، ط١، ١٤١٦هـ.
- **سنن النسائي**، ت: مكتب تحقيق التراث الإسلامي، دار المعرفة، ط٢، ١٤١٢هـ.
- **السيرة النبوية**، ابن هشام، ت: مصطفىٰ السقا وآخرون، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٥هـ.
- **السيرة النبوية وأخبار الخلفاء**، ابن حبان البستي، دار الكتب الثقافية، ط٣، ١٤١٧هـ.

- **صحيح البخاري**، دار التأصيل، ط٣، ١٤٣٨هـ.
- **صحيح الجامع الصغير وزيادته**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ.
- **صحيح مسلم**، عناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.
- **الطبقات الكبير**، ابن سعد، ت: د. علي محمد عمير، مكتبة الخانجي، ط٢، ١٤٢٤هـ.
- **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، ابن قيم الجوزية، ت: نايف بن أحمد الحمد، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤٢٨هـ.
- **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، عبد الرحمن الجبرتي، دار الجيل.
- **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، الحافظ ابن حجر، ت: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
- **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، الشوكاني، دار ابن كثير، ط١، ١٤١٤هـ.
- **قضايا المرأة في المؤتمرات الدولية دراسة نقدية في ضوء الإسلام**، د. فؤاد بن عبد الكريم العبد الكريم، مركز باحثات.

- **مالكوم إكس الزعيم الشهيد لمسلمي أمريكا السود** - سيرة ذاتية، تحرير: إليكس هيلي، ترجمة: د. أحمد عبد الرحمن، مكتبة جزيرة الورد، ط١، ٢٠١١م.
- **مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة**، عبد العزيز بن باز، جمع د. محمد بن سعد الشويعر، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، دار أصداء المجتمع، ط٣، ١٤٢١هـ.
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ابن عطية، ت: مجموعة من الباحثين، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بقطر، ط١، ١٤٣٦هـ.
- **مدارج السالكين في منازل السائرين**، ابن قيم الجوزية، ت: نبيل نصار السندي، دار ابن حزم، ط١، ١٤٤١هـ.
- **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، ت: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.
- **معالم التنزيل**، البغوي، ت: محمد عبد الله النمر وآخرون، دار طيبة، ١٤٣١هـ.
- **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، الراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ.

- **المغني**، موفق الدين ابن قدامة، ت: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي والدكتور عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، ط٢، ١٤١٢هـ.
- **المفاتيح في شرح المصابيح**، الحسين بن محمود المظهري، ت: نور الدين طالب وآخرون، دار النوادر، ط١، ١٤٣٣هـ.
- **مقاييس اللغة**، ابن فارس، دار الكتب العلمية، ط٣، ٢٠١١م.
- **المقدمة**، ابن خلدون، دار الكتب العلمية، ط١٤١٣،١هـ.
- **موسوعة التفسير المأثور**، مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي، دار ابن حزم، الطبعة الثانية١٤٤٠هـ
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٥هـ.
- **النهاية في غريب الحديث**، ابن الأثير الجزري، ت: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ.
- **الوسيط في تفسير القرآن المجيد**، أبو الحسن الواحدي، ت: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط١، ١٤١٥هـ.